



الإسلام ثقافة الحياة

سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِيُّ الْمُدَرِّسِيِّ



الإسلام ثقافة الحياة

سَمَاحَةُ الْمَجْمَعِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِيُّ الْمُدَرِّسِيُّ

هوية الكتاب

الكتاب: الإسلام ثقافة الحياة

المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

الطبعة: الثالثة (١٤٣٩-٢٠١٨ م) (١٩٠ صفحة)

الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

المحتويات

١٥	المقدمة.....
١٥	ما هي الثقافة؟.....
الباب الاول: الثقافة المسؤولة / ١٩ - ٥٥	
	
٢١	الفصل الأول: دور الثقافة الرسالية في نهضة الأمة.....
٢٢	مشكلة الجهل في مسيرة الثقافة.....
٢٣	لا.. لثقافة اليأس.....
٢٥	الحديث بغير علم.....
٢٥	لابد من توعية الناس.....
٢٦	نشر الثقافة السليمة هو الحل.....
٢٧	الفصل الثاني: الثقافة المسؤولة بداية الانطلاقة نحو التغيير.....
٢٧	بين فكر المسؤولية وفكر الخمول.....
٢٨	الارادة والشعور بالمسؤولية.....
٢٩	كيف نجعل فكرنا مسؤولاً؟.....
٣٠	سيادة قانون التعاون والتضامن.....
٣١	السبيل الى التفكير المسؤول.....



٣٢	عقبات في طريق التفكير.....
٣٣	الحوار الطريق الى الفكر المسؤول.....
٣٥	الفصل الثالث: الثقافة التبريرية أرضية الفساد السياسي.....
٣٥	ضرورة العودة الى القرآن الكريم.....
٣٦	مشاكل الانسان نابعة من تصرفاته.....
٣٧	السياسة مقياس حركة الانسان والمجتمع.....
٣٧	كيف عالج القرآن الكريم المشكلة السياسية؟.....
٣٨	النصر لا يأتي من خلال القوى الغيبية فحسب.....
٣٩	الكرامة لا تستعاد إلا عن طريق التضحيات.....
٣٩	ضرورة احداث هزات عنيفة في ضمير المجتمع.....
٤٠	واجب القادة والعاملين في سبيل الله.....
٤٣	الفصل الرابع: الزلزال الثقافي قبل النهضة الشاملة.....
٤٤	ثقافة فصل الدين عن السياسة.....
٤٥	الثقافة القدريية.....
٤٦	الثقافة التبريرية.....
٤٦	مسؤولية الثقافة.....
٤٩	الفصل الخامس: الجهاد الثقافي بعد الانتصار.....
٤٩	الصراع الثقافي هو الصراع الاول.....
٥١	العالم هو حامل راية الثقافة.....
٥١	من مظاهر الصراع الثقافي.....
٥٢	الثقافة الجاهلية ليست إلا تبريرات وأباطيل.....
٥٣	الجهاد الثقافي هو الجهاد الأعظم.....

٥٤ طلائع الامة مدعوة الى الوحدة

الباب الثاني: التحدي الثقافي / ٥٧ - ٩٠



٥٩ الفصل الأول: كيف نكتشف الثقافة الدخيلة؟

٥٩ حاجة العقل الى نور الوحي

٦٠ الفصل بين الثقافتين الدخيلة والأصيلة

٦٢ ثقافات تبريرية مختلفة

٦٥ الفصل الثاني: السبيل الى تحدي الثقافة الطاغوتية

٦٥ تحدي الثقافة الطاغوتية

٦٦ ضرورة التوجّه الى القرآن

٦٧ تنمية القدرة على التمييز بين الافكار

٦٨ تكثيف المطالعات وبرامج بناء الذات

٧١ الفصل الثالث: كيف نقاوم الثقافة الجاهلية؟

٧١ الثقافة التبريرية

٧٢ الثقافة متهمة حتى تثبت براءتها

٧٤ كيف نكتشف الثقافة الباطلة؟

٧٦ كيف نرد الثقافة الباطلة

٧٧ الفصل الرابع: لكي لا تكون ثقافتنا منسية

٧٧ مسؤوليتنا تجاه ثقافة أهل البيت

٧٨ مثالب المكتبة الإسلامية العربية

٨٠ الوسيط بين لغة القدماء ولغة العصر

٨١ كتابة التاريخ الرسالي بلغة العصر



- ٨٣ ثقافة اصيلة واسلوب معاصر
- ٨٥ الفصل الخامس: الثقافة الجاهلية قاعدة الحركات الانتقائية
- ٨٥ المنحرفون عن الاسلام
- ٨٦ لماذا الانحراف في فهم الاسلام؟
- ٨٧ فقدان القاعدة يسبب الانحراف
- ٨٨ ضرورة وجود القائد الديني
- ٨٩ المادية سبب انحرافنا

الباب الثالث: ثقافة الحياة / ٩١ - ١٣٧



- ٩٣ الفصل الأول: ثقافة الحياة؛ خصائصها وأسسها
- ٩٣ ثقافة الحياة.. ثقافة البذل والعطاء
- ٩٤ كيف نميز بين ثقافة الحياة وثقافة الموت؟
- ٩٥ القرآن دواء جميع امراضنا
- ٩٦ فلنعد الى القرآن الكريم
- ٩٧ دور القرآن في تكوين ثقافة الانسان المؤمن
- ٩٩ الفصل الثاني: بين ثقافة الحياة وثقافة الموت
- ٩٩ ثقافة الحياة
- ١٠٠ حقيقة الثقافة القرآنية
- ١٠١ السبيل الى مواجهة ثقافة الموت
- ١٠٣ الفصل الثالث: بين ثقافة الحياة وثقافة الجمود
- ١٠٤ ثقافة التحضر وثقافة الانحطاط
- ١٠٥ التفسير حسب نوع الثقافة

١٠٦	محاولات مشبوهة.....
١٠٧	ثقافة تقليد الآباء.....
١٠٨	ضرورة العودة الى الينايع الاصيله.....
١١١	الفصل الرابع: ثقافة الحياة بين العقل والشهوات.....
١١١	الانسان بين حجة العقل وحجة الوحي.....
١١٣	استثارة العقل بالقرآن.....
١١٣	الثقافة الحية مرهونة بتفجير الطاقات العقلية.....
١١٥	ما هي الثقافة الجحيمية.....
١١٦	السييل الى اقتحام العقبة.....
١١٩	الفصل الخامس: الثقافة القرآنية وتطورات الحياة.....
١١٩	تنمية روح التقوى كأساس للثقافة.....
١٢١	العلم الحق سبيل تحصيل الثقافة.....
١٢٢	من الضروري ان نعيد النظر في ثقافتنا.....
١٢٤	ثقافتنا بحاجة الى تغييرات.....
١٢٥	تكييف الثقافة حسب المتغيرات من قبل الفقهاء.....
١٢٦	ثقافة اللب لا القشور.....
١٢٧	الفصل السادس: ثقافة القوة والاقتدار.....
١٢٧	الثقافة مصنع شخصية الانسان.....
١٢٨	الانسان المؤمن لا تزعزعه صعوبات الحياة.....
١٢٩	ثقافة المؤمن ثقافة الأمل.....
١٣١	الفصل السابع: المسلمون وثقافة الحياة.....
١٣٢	فكر وتدبر.....



- ١٣٣ سُلم الاولويات في الحياة
- ١٣٣ حاجتنا الى ثقافة الحياة
- ١٣٦ النظرة الايجابية

الباب الرابع: النهج الثقافي / ١٣٩ - ١٩٠



- ١٤١ الفصل الأول: منهجية التفكير السليم
- ١٤٢ السبيل الى التفكير الصحيح
- ١٤٣ قدرتنا على التقدم
- ١٤٤ عقبات التفكير
- ١٤٥ الحوار سبيل تكامل التفكير
- ١٤٦ استماع القول واتباع الاحسن
- ١٤٩ الفصل الثاني: الثقافة بين الأصالة والتطوير
- ١٥٠ الثقافة أهم نتائج العقل
- ١٥٠ نحن والثقافة
- ١٥٢ نتيجة الثقافة هي المهمة
- ١٥٣ لابد من ان نطور ثقافتنا
- ١٥٥ الفصل الثالث: الثقافة بين الثواب والمتغيرات
- ١٥٧ النظرية الاسلامية
- ١٥٨ النظرة الثابتة هي المسؤولة عن السلبيات
- ١٦١ الفصل الرابع: الثقافة في خدمة النهضة
- ١٦٥ الفصل الخامس: ملامح الثقافة السليمة
- ١٦٥ كيف نكشف المرض الثقافي؟

الملاحظة تكشف زيف المرض.....	١٦٦
المجهر الثقافي.....	١٦٦
دفعة عاطفية ومقاييس عقلية.....	١٦٧
الفصل السادس: المراحل الاربع للثقافة.....	١٦٩
١ - دور الشباب.....	١٦٩
٢- دور الشيخوخة.....	١٧١
٣- دور المرض الثقافي.....	١٧٢
الاستسلام للواقع.....	١٧٢
بين الخوف.. والرجاء.....	١٧٣
الشكر لله.....	١٧٣
الصبر على المكاره.....	١٧٤
النظام سنة الحياة.....	١٧٥
الفصل السابع: مفارقات ثقافية بين الاسلام والمسيحية.....	١٧٧
بين الفداء والشفاعة.....	١٧٨
نظرية مرفوضة.....	١٧٩
احتمالات الاجابة.....	١٨٠
فكرة الشفاعة.....	١٨١
الفصل الثامن: نهاية الثقافة عند أزمة التطور.....	١٨٥
التطور مسيرة لا توقف.....	١٨٥
الانطلاق من قيد التقليد.....	١٨٧
التقليد في التطوير.....	١٨٨
الأزمة بين الدين والعلم.....	١٨٩

المقدمة

ما هي الثقافة؟

منظومة الرؤى والافكار المؤثرة في حياة الانسان والتي تحدد مسار سلوكه وطبيعة مواقفه هي ثقافته.

إذاً لا تعتبر العلوم الطبيعية من الثقافة بالرغم من تأثيرها غير المباشر على الفكر والسلوك.

كما أنَّ الفكرة اليتيمة التي لا تنتم الى غيرها ولا تشكل مجموعة مترابطة، لا تسمى ثقافة، إذ أنَّ الثقافة - كما تدل كلمتها - هي الفكرة التي تقوِّم الانسان. أَوَليست العرب تقول: ثَقَّف العود وتعني انه عَدَّلُهُ؟ وهذا سر الصعوبة البالغة في تحديد ثقافة الفرد او الأمة، وفرزها عن الافكار الشاردة وعن القضايا العلمية المجردة، وبالذات في هذا العصر حيث تضخ الوسائل التوجيهية المختلفة (كتب، مجلات، جرائد، نشرات، إذاعات مسموعة ومرئية، وافلام وصور، وشبكات الإنترنت المختلفة، وغيرها) تضخ في أجواننا حشداً هائلاً من الافكار.

وهكذا لم يعد الانسان العصري اليوم يعاني من قلة الافكار (كمّاً ونوعاً) ولكن من كثرتها المتزايدة، حتى أنه لا يقدر على تقييمها وانتخاب المفيد منها، وهكذا يتخذ موقف اللامبالاة وتنزاح المعلومات عن قلبه كما ينزاح الماء من أطراف بلورة أنيقة.



إنَّ لكل انسان شخصيته الداخلية التي تمنحه التميز والاصالة، كما إنَّ له ظروفه ومصالحه واهدافه المحددة.

والثقافة النافعة هي التي تنسجم بنسبة معقولة مع هذه الشخصية، وقد اوتي كل فرد قدرة التمييز ولكن حين يواجه حشداً هائلاً من الافكار يكون حاله كمن يكلف بشراء سيارة تناسبه في جملة السيارات التي يراها في شارع مزدحم، إنه تكليف لا يطيقه، ومن هنا ترى الناس بين من لا يختار فكرة (ويصبح أمياً من الناحية العملية) أو يختار بلا هدى من عقله ومن واقع شخصيته المتميزة (فيصبح ذا شخصية متناقضة داخلياً).

ونعاني - نحن المسلمين - اكثر من غيرنا من هذه الصدمة الثقافية لاننا ننتمي الى حضارة اصيلة، ونتميز في قيمنا وتأريخنا واهدافنا ومصالحنا عمن يملك ناصية الثقافة العالمية، وهم المسيطرون على التقنية (امريكا واوروبا بالذات) فلا نستطيع الانغلاق دونها ولا يصلح لنا الاسترسال معها، والطريق السوي هو انتخاب النافع، ولكن ضمن اي معيار وكيف؟ وامواج الثقافة الغربية تغمرنا غمرة بعد غمرة.

الفرد لا يمكنه أن يختار لوحده كلما ينفعه ويظهر قلبه مما يضره من الافكار، إذاً لابد من المؤسسات التي هي جهد عقلي مشترك من اجل البحث عن صيغة مثلى للثقافة النابضة بالحياة.

والمؤسسة الشرعية والمثلى عندنا - نحن المسلمين - وبالذات من أتباع اهل بيت الرسالة هي المؤسسة الدينية (المرجعيات الاسلامية والحركات الاسلامية). وتقوم المؤسسة بالطرق التالية من أجل الوصول الى الثقافة الصافية التي هي الماء الفرات السائغ للشاربين، وهي:

الف: تحديد الهدف

أيُّ حاجة لنا في الثقافة؟ هل نحن بحاجة الى تفجير الطاقات، واقامة افضل العلاقات بين ابنائنا، والى تطهير مجتمعنا من الاغتراب الروحي ومن الذوبان في بوتقة الاخرين، وبالتالي الى المزيد من النقاء والاصالة؟

إنها حاجات خاصة علينا ان نسعى لاشباعها من خلال تغذية اجواننا بأفكار خاصة. أ ترى كل دواء ينفع كل مرض؟ كلا، إنّ على الطبيب قبل ان يصف عقاراً تحديد المرض بدقة؛ كذلك الثقافة. إنّ أية مؤسسة ثقافية عليها دراسة أعمق لمسيرة الامة واهدافها الحضارية الكبرى، ثم كشف العلاقة بينها وبين الثقافة، ثم تحديد مسار الثقافة لها.

باء: ثقافة للامة حسب الطلب

الافكار المرتبطة بعامة الناس علينا أن نجعلها في مصاف اول الافكار التي نعرضها على المجتمع، أما تلك الافكار المتعلقة بجانب خاص من حياة المجتمع فيجب علينا ان نقدمها فيما بعد، وهكذا نبوب الافكار ونصنفها حسب حاجة المجتمع، وهذه العملية هي عملية دراسة الثقافة دراسة معمقة واستخراج الافكار والاطروحات المفيدة منها.

وهذه المرحلة تتمثل في ان نقارن ثقافتنا بالثقافات الوافدة الينا، ونبلور دراستنا في هذا المجال، والذي يهون المشكلة في هذا الصدد أنّ الخط الفكري الذي نحن ملتزمون به يحتوي على تيار زاخر من الافكار الثقافية، وعلينا ان نتعرف على هذه الافكار، وندرسها بعمق من خلال التفرغ لهذه الدراسة بشكل جدي، ومحاولة معرفة ابعادها، والغوص الى اعماقها خلال فترة معينة نخصصها لهذا العمل المهم.



جيم: معايير الانتقاء

وعلينا في هذا المجال ان ننمي في الجماهير القدرة على انتزاع الافكار الرئيسية، والحصول على جوهر ولباب الموضوعات التي تُقرأ أو تُسمع، لكي يقوموا باستخراج الفكرة الحقيقية، لا أن يصب إهتمامهم على الظواهر، ومثل هذا العمل يتطلب قدرة ومهارة كبيرتين في عالم الثقافة لا يتسنى لكل شخص الحصول عليهما، أي إن هذه المرحلة تعتبر مرحلة متقدمة من القدرة على البحث، فليس كل انسان قادراً على اكتشاف وتحديد ما يقصده الطرف الاخر، فهناك بعض الكتاب والمتكلمين يمتلكون قدراً من الذكاء يساعدهم على ان يخفوا افكارهم الحقيقية، فلا يصرحوا بها بل يوحون بها احياناً ليقتنع القارئ بأفكارهم من دون تمحيص، فاذا ما استطعنا اكتشاف خلفيات احاديث الآخرين، ومرتكزاتهم الفكرية، فاننا سنكون قد وصلنا الى مرحلة متقدمة من القدرة على تقييم الثقافات المختلفة.

وهكذا يعتبر من أهم أهداف المؤسسة الثقافية نشر المعايير التي ترفع من قدرة التقييم عند أوسع الجماهير.

ومن هذا المنطلق بادر الاخوة في القسم الثقافي في مكتبتنا باعداد هذا الكتاب الموسوم ب (الاسلام ثقافة الحياة) وقد تم اختيار مقالاته من مجموعة احاديث القيت في مناسبات عديدة، كما ضم الى هذا الكتاب ايضاً خمسة مقالات كانت قد نُشرت في مجلة (صوت الخليج) الكويتية، وقد أدرجناها في الفصل الرابع تحت عنوان (النهج الثقافي). نأمل أن يساهم هذا الجهد المتواضع في بلورة الرؤى الثقافية عند اوسع الجماهير، وبالذات عند المؤمنين المتمسكين بهدى الشريعة الغراء والله ولي التوفيق .

محمد تقي المدرسي

٩ / ربيع الاول / ١٤١٥ هـ

A decorative horizontal border featuring symmetrical floral and scrollwork patterns on both sides, framing the central text.

الباب الاول

الثقافة المسؤولية

الفصل الأول

دور الثقافة الرسالية في نهضة الأمة

عندما يفتش الانسان عن أساس المشاكل التي نعانيها وتعاني منها الامة الاسلامية اليوم، لابد أن يقع على المشكلة الثقافية كوحدة من أخطر المشاكل التي تتفرع منها الازمات والعقد الحضارية الاخرى. والقضية الثقافية انما تتبوأ مكانتها الاساسية في هذا الصدد من بُعدين رئيسيين:

البعد الاول: ان الأمة الاسلامية هي بالدرجة الاولى أمة تقوم على اساس المبدأ، وتتمحور حول الرسالة، فالاعتقاد بالمبدأ، وحمل الرسالة يعنيان كل شيء بالنسبة الى كيانها.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^١

فالأمة الواحدة هنا لا تقوم على اساس الارض ولا على اساس القومية واللغة والمصالح، بل تقوم على اساس توحيد الله - تعالى - وهذا هو اساس الامة الاسلامية.

ومن المعروف أنَّ الثقافة تشكل جزءاً أساسياً من العقيدة والايمان والعبادة، فمن دون العلم، والوعي السليم، والرؤية الصائبة لا يمكن ان تكون لدى الانسان عقيدة أو ايمان.

١ - سورة الانبياء، الآية: ٩٢.



البُعد الثاني: هو بعد مشترك بين الامة الاسلامية وبين سائر الأمم رغم انه بعد يميز الانسان عن غيره، أليس الانسان كائناتاً حضارياً؟ فلا ريب أن الله قد أكرم الانسان، وحمله في البر والبحر بما علّمه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^١، وعندما علّم الله تعالى آدم الاسماء أسجد له ملائكته، فالانسان - اذن - هو كائن مثقف، والثقافة تؤثر عليه. وعندما انحرقت ثقافتنا عن مسارها الصحيح إنحرفنا عن صراط سعادتنا، وطريق فلاحنا. والعودة الى هذا الطريق وذلك الصراط لن يكون إلا بتصحيح الثقافة، فمن يحدثك عن الاصلاح والتغيير، وعن العمل السياسي والاقتصادي دون أن يقدم لك برنامجاً سليماً وواضحاً في التثقيف والتوعية فان كلامه هذا لا يقوم على أساس ثابت، بل الصحيح ان يزودك بالبرنامج الثقافي الذي يخلق الانسان الحضاري أولاً، ومن ثم يأمرك بالتحرك، ويعطيك البرنامج السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي، وما الى ذلك.

مشكلة الجهل في مسيرة الثقافة

ونحن نعاني في مجال الثقافة من مشكلة الجهل. والجهل على قسمين:

- ١- أن نتحدث بما لا تعلم.
- ٢- أن نتحدث بكل ما تعلم، من غير تمييز بين الغثّ والسمين، وبين الضار والنافع، وبين المناسب وغير المناسب. وهنا أود أن أتوقف عند هذا القسم الثاني من الجهل.

يقول الإمام علي عليه السلام: «لَا تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا تَعْلَمُ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا»^٢.

١- سورة البقرة، الآية: ٣١.

٢- عيون الحكم والمواعظ، ص ٥١٨.

هناك الكثير من الناس يزعم أن عليه أن يحدث الناس بكل معلومة يعلمها، أو لا ينبغي أن يشاركه الناس في علمه؟ فيحدث الناس بكل ما يعلم، ومثل هذه النظرة تسبب الفساد بدلاً من أن تقدم لنا العلاج، ذلك لأنّ الانسان الذي يريد أن يحدث الناس بكل ما يعلمه سيحدثهم بالتأكيد عن الاخطاء التي يرتكبها الآخرون وعن سلبياتهم، فهل من الصحيح أن أحدث الناس بمعلوماتي حول الشخص الفلاني الذي اخطأ، أو أذنب، أو إنحرف؟ فان انتقده الآخرون أجابهم: إنَّ عنده علماً بذلك. نعم، انت تعلم ذلك، ولكن لا كل ما يُعلم يُقال، حتى لو أدى إلى الإفساد، فإفساد ذات البين هو كذب عند الله تعالى، في حين ان الكذب الذي يهدف الاصلاح هو صدق.

إنّ الاجواء التي يعيشها البعض امتلأت بالسلبيات، فكل واحد منا يجلس ليحدث الناس عن سلبيات الآخرين، وهذا سلوك محرم عند الله، فقد حرم تعالى الغيبة، وسوء الظن، والتجسس على الناس، والنميمة، والسب، كما وحرم العشرات من الذنوب التي يرتكبها لسان الانسان، في حين أنّ اكثرها معلومات لا مجهولات، لان فيها اشاعة لجو السلبية، واني استطيع ان اقول ان عشرين بالمائة من المحرمات الاخلاقية هي محرمات اللسان وخصوصا تلك التي تأخذ فيها الجوانب السلبية، وتحدث الناس بها.

لا.. لثقافة اليأس

وهناك مثل آخر استوحيه من حديث للامام أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقَّ الْفَقِيهِ؟ مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي



مَعَاصِيِ اللَّهِ، وَلَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»^١
 فاذا صعدت المنبر وأعلنت للناس: أَنَّ الكاذب يذهب الى النار،
 والمتهَم يذهب الى النار، ومن يغتاب الناس، وَمَنْ يقطع الرحم، وَمَنْ...
 وَمَنْ... يدخلون النار، فَإِنَّ هذا كله صحيح، وليس كذباً، ولكن الناس
 الجالسين سوف يفهمون من هذا الكلام أنهم كلهم من أصحاب النار،
 فلماذا العمل والنشاط إذن؟ ولماذا التوبة أساساً؟

ومن هذا الاقنط والتئيس هو ما يفعله بعض المتحدثين
 والمفكرين حينما يلقي خطاباً حيث تراه يكثر من ذكر سلبيات
 الامة الاسلامية، ويشير الى نقاط ضعفها وتفرقها وانهيارها، والجالس
 الذي يستمع الى هذا الكلام او يقرأه يتصور ان الدنيا قد انقلبت،
 في حين أَنَّ القضية ليست بهذا المستوى من السوء، فهناك نقاط
 ايجابية الى جانب النقاط السلبية، فلماذا لا نحدث الناس بالنقاط
 الايجابية، ولماذا لا نبعث روح الأمل والنشاط في نفوسهم.

ومن النقاط الايجابية التي كان يمتاز بها الامام الخميني رضوان الله
 عليه كمرجع ديني قاد حركة تغييرية موفقة، انه قليلاً ما كان يتحدث عن
 السلبيات، فقد كان عادة يحدث الناس عن الجوانب الايجابية، فيعطيه
 الامل، وفي نفس الوقت يحثهم على العمل والنشاط، لان الامل هو
 الذي يسوق الانسان نحو العمل، ونحو النجاح.

وعلى مفكرينا وكتابنا أَنْ لا يتركوا اليراع يجري على الصفحات
 دون تفكير، بل عليهم ان يفكروا فيما يكتبونه، فان تحدّثوا عن سلبيات
 الامة فليحدثوا الناس في نفس الوقت عن نقاط القوة فيها أيضاً،
 وعن الطموحات والاهداف العظيمة، وَإِنَّ حدّثوا الناس عن نار جهنم

فليحدّثوهم أيضاً عن مغفرة الله تعالى. وإنّ تكلموا عن ضرورة الوحدة والتآلف، وأشاروا الى فرقة الامة فلا يكون الحديث متوغلاً في السلبية، فسلّاح اليأس هو أخطر اسلحة الشيطان، وعلينا ان نقاوم هذا اليأس، فإنّ اليأس من جنود الشيطان.

الحديث بغير علم

أما الجهل الآخر فهو الحديث بلا علم، أو الحديث الكاذب، وهو ما منيت به أكثر أجهزة الإعلام في عصرنا الحاضر للأسف، فالكذب قد أصبح حقاً أساس صحافات، وإذاعات، وفضائيات، ووكالات الأنباء في البلدان الإسلامية.

إنّ هذه الصحف ووسائل الاعلام التي تنقل هذه الأكاذيب هي التي تقف وراء المشاكل التي تعاني منها الامة، وهذه المشاكل لا تتمثل في الاسلحة التدميرية، ولا في القتل والتشريد والسجن، بل في الخداع والتضليل الذين تقوم بهما بعض الصحف والإذاعات والفضائيات التي تطالعنا كل يوم بالدجل والافكار الكاذبة.

لابد من توعية الناس

هذه هي مشكلة الامة، والقرآن الكريم من بدايته الى نهايته يتعرض لمعالجة هذه المشكلة في آيات عديدة، ومن اجل معالجة المشكلة الثقافية التي نرى الامة مبتلاة بها لابد من حملة توعية واسعة نقوم من خلالها بلفت اذهان الناس الى الآثار السلبية التي يتعرضون لها من قبل وسائل الاعلام، فلا بد لهم من أن يعرفوا أنّ وسائل الإعلام هذه والذين يكتبون فيها، انما تستهدف إنتزاع استقلالنا وكرامتنا، فلا بد ان نفصح هؤلاء الكتاب الذين يكتبون في الصحف مقالات يمثل الدجل



والكذب والتضليل الجزء الاكبر منها، لانها كتبت بأقلام مأجورة. وللأسف فلقد صقّى الاستعمار الاقلام المخلصة في الامة، ولم يبق منهم الا القليل. فكل من كانت لديه ذرة من الاستقلال والتحدي أصبح مصيره السجن او الاعدام او النفي على أيدي الطغاة وأذنابهم الإرهابيين. وبعض الذي تبقى منهم عبارة عن مجموعة مستسلمين للاستعمار يقبضون مرتبات ضخمة مقابل بيعهم لذمهم وضمائرهم. إن هؤلاء الاعلاميين يساهمون في تخلف الامة وتمزقها ونشر الضلال بين صفوفها وهم في الحقيقة يساهمون في قتل الامة الاسلامية، فهم الذين يسهمون في تكريس وجود حكام الظلم والجور. وهذه الحقائق يجب ان ننشرها بين الجماهير ليكون ابناء الامة على وعي بما يجري، ومن جهة اخرى يجب ان نهتم اهتماماً شديداً بنشر الثقافة الصحيحة.

نشر الثقافة السليمة هو الحل

كفانا تخلفاً وتمزقاً، وكفانا سماعاً لاخبار الهزائم، ولنبدأ طريق العودة الى اخبار الانتصارات من خلال الإعداد لذلك بنشر الثقافة السليمة، وأن نكون في مستوى ثقافة القرآن الكريم، وليكن رائدنا في ذلك المسلمين الاوائل الذين جعلوا القرآن يُقرأ على كل قارعة طريق صباح مساء، فنشروا هذه الثقافة، واستطاعوا دحر الضلالات الجاهلية برسالة القرآن. ونحن اليوم علينا أن نتحمل هذه المسؤولية، فالاسلام يؤكد لنا أن داد العلماء أفضل من دماء الشهداء^١، فعلى كل واحد منا أن يتحول الى مؤسسة ثقافية بالاضافة الى مسؤولياته الاخرى.

١- جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَوُضِعَتِ الْمَوَازِينُ، فَتَوَزَّنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِزَادِ الْعُلَمَاءِ، فَيَرْجَحُ مِزَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ) [من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٨، ح ٥٨٥٣].

الفصل الثاني

الثقافة المسؤولة بداية الانطلاقة نحو التغيير

منهجية الانسان في التفكير تحدد عادة مستقبل حياته، وهذه المنهجية هي أهم ما ينبغي أن يغيره الانسان في نفسه، ومن الظواهر السلبية في منهجية التفكير هو: الفكر اللامسؤول، والثقافة اللامسؤولة.

بين فكر المسؤولية وفكر الخمول

والفكر على نوعين: فكر يدفعك نحو تحمل المسؤولية، ويرفعك الى مستوى العطاء والتصدي، وتحمل تلك الامانة التي ألقيت على عاتقك في عالم الذر، والتي اشفقت السماوات والارض والجبال أن يحملنها وحملتها أنت.

النوع الاخر من الفكر هو الذي يكرس فيك حالة الخمول والتردد والتراجع، ويضع على قلبك الاغلال والقيود.

وفي مجتمعنا اليوم أفكار كثيرة متموجة تتسرب الى ادمغتنا من حيث لا ندري، وتتشعث في أذهاننا من حيث لا نشعر، وتحجبنا عن الحقائق، وهذه الافكار أخطر علينا من الفيروسات الفتاكة، ومن الاعداء الظاهريين.

وللأسف فاننا نلقي عادة مجموعة من مسؤولياتنا على عاتق غيرنا،



فنقف مكتوفي الايدي ازاء الاحداث التي تجري في العالم الاسلامي، ونوزع الاتهامات يميناً ويساراً، في حين أن النبي ﷺ يؤكد قائلاً: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^١.

وهذه المنهجية المغلوطة هي التي تبعث على الخمول واللامسؤولية، وهي المسؤولة عن واقعنا المتردي، وإذا لم نبادر الى تغييرها فان واقعنا لا يمكن ان يتغير، فالانسان يحمل في داخله نوراً إلهياً هو نور الارادة، وبهذه الارادة يستطيع أن يتحدى كل ما من شأنه ان يقيدَه ويحدّ من حركته، وعلى ضوءها يسأله الله تعالى، فيثيبه أو يعاقبه.

الارادة والشعور بالمسؤولية

ولم يكن عبثاً ان الله أمر الملائكة اجمعهم بالسجود لآدم، فقد كان الانسان يحمل ذلك النور؛ نور العقل والنبوة والرسالة والمسؤولية والتحدي، والقرآن كله من بدايته الى نهايته يوجهنا الى حقيقة الارادة والشعور بالمسؤولية، فلكي نكون مؤمنين بالمعنى الحقيقي للكلمة علينا أن نشعر بالمسؤولية إزاء غيرنا من الشعوب التي تربطنا بهم آصرة الاسلام والايمان، فليس امامنا خيار غير التصدي والصمود، والتحرر من ثقافة التبرير وإلقاء المسؤولية على الآخرين، فهذا النوع من التفكير هو الذي يكمن وراء تخلفنا.

فلنبداً بتغيير انفسنا كمقدمة لتغيير المجتمع نحو الصلاح والاستقامة، ولنفكر بهذه المنهجية، وليكن تفكيرنا موضوعياً مسؤولاً، فنحن اليوم بأمس الحاجة الى رجال ذوي ارادة واصالة وواقعية، يحملون

هموم قضيتهم. فقيمة الانسان بما يحمله من قضايا، وبما يغير من واقعه، والانسان الذي لا يتحرك، ولا يعمل شيئاً، إنما هو انسان ميت.

كيف نجعل فكرنا مسؤولاً؟

ومن اجل ان يكون فكرنا مسؤولاً، علينا أن نحقق الوحدة التي هي مصدر العافية في جسم الامة، وهناك العديد من الشروط والعوامل التي يجب ان تتوفر لكي تتحقق الوحدة بين صفوف الامة الاسلامية ذات الهدف الواحد، والستراتيجية الواحدة، التي يصفها الإمام أبو عبد الله عليه السلام بقوله: «الْمُؤْمِنُونَ فِي تَبَارُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^١.
إن جسمنا يتقطع ولكننا لا نحس بذلك بسبب تفرقنا، وتصارعنا وافتقارنا الى الوحدة التي تمثل العامل الاساسي الذي يجعل الامة سليمة معافاة، لا وجود فيها للاختلافات وسائر الامراض الاخلاقية كالغيبة والنميمة، وهذه هي الامة الواحدة التي تدعو الى الخير وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٢.

وهنا أود الإشارة إلى سلبية من سلباتنا التي تتمثل في أننا نعيش حالة الاحلام والتمنيات دون أن نضع نصب أعيننا أننا يجب أن نبدأ من حيث نحن، فهذه الوحدة التي نحلم بها تبدأ مني ومنك، فلنتَّجِد ولنوَّحِد معنا الفئات الاخرى، ونصبح بالتالي كتلة واحدة، وشيئاً فشيئاً سنتنشر هذه الوحدة كالنور، فهي لا يمكن ان تأتينا من الخارج، بل تبدأ منا، والينا تنتهي وذلك من خلال ايجاد التكتلات اليمانية التي تعني

١ - بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٧٤.

٢ - سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.



أنَّ الانسان المؤمن لا يمكن ان يعيش لوحده، وإنما يعيش ضمن كتلة واحدة مترابطة، كما اشار الى ذلك الامام علي عليه السلام بقوله:

«...وَالزُّمُومَةُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّنَبِ».^١

فعلينا - إذن - أن نجتمع، والقرآن الكريم يؤكد دائماً على هذا الأمر من خلال مخاطبتنا بصيغة الجمع في آيات من مثل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^٢، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^٣، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٤.

سيادة قانون التعاون والتضامن

وعندما تتشكل التجمعات فلا بد أن يحكمها قانون التعاون والتضامن، وهذا القانون ينظّم العلاقة بين أعضاء هذه التجمعات، ومن خلال المزيد من التعاون والتضامن سوف يكون بإمكاننا تحقيق الوحدة، وحينئذ ستتأثر هذه التجمعات بما يجري حولها من احداث في العالم الاسلامي، وستتوفر فيها الحالة النهضوية، وتوحيدها علاقة شديدة ومتينة، وتسودها شبكة من العلاقات الواسعة التي تكون بمثابة الاعصاب في جسد الانسان.

وسيادة مثل هذه الحالة بين أوساطنا ستؤدي بنا بالتأكيد الى تحقيق الانتصارات المتتالية في جميع الميادين، شريطة أن لا تحدث في انفسنا

١ - نهج البلاغة (صحيحي الصالح)، ص ١٨٤، قسم الخطب، رقم ١٢٧.

٢ - سورة الرعد، الآية: ٢٩.

٣ - سورة البقرة، الآية: ٤٣.

٤ - سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

هذه الانتصارات حالة الغرور والعجب، كما وعلينا أن نتذكر أن الشروط الأساسية للانتصار تتمثل في الصبر والصمود والتحدي، ومع توفر هذه الشروط سنكون - بإذن الله - منتصرين في كل المواضع، وسوف تزول عنا حالة الغرور والانتشاء التي تحول النصر الى هزيمة، لان الانسان المغرور لا يفكر الا في نفسه، وحزبه، وتجمعه.

السبيل الى التفكير المسؤول

ولا شك إن الفكر المسؤول يفتح أمام الانسان أبواباً جديدة، وآفاقاً واسعة لم يكن يحلم بها أبداً، وقبل أن نفصل الحديث في هذا الاثر من آثار الفكر المسؤول، نذكر بأن الناس على نوعين: نوع يفكر، ونوع يقلد. والفرق كبير بين هذين النوعين، فالاول يفكر ويبدع ويخترع، والثاني ينتظر الاخرين ليقودوه وكأنه أعمى! فقيمة الحياة تكمن في الاكتشاف والابداع والتفكير، والذي لا يفكر لا يمكنه أن يكتشف شيئاً، وبالتالي فإنه سوف لا يؤثر في الحياة.

ترى كيف نفكر التفكير الصحيح، وما هي العقبات التي تعترض طريق التفكير، وما هي الوسائل التي تساعد الانسان على إنضاج تفكيره؟ سوف نجيب على هذه التساؤلات فيما يلي من سطور.

كيف نفكر؟

قبل كل شيء لابد أن نشق بأفكارنا، فالشعب المستعمر الذي سلبت منه حريته وكرامته لا يمكنه ان يفكر، فالانسان لا يندفع الى التفكير الا اذا عرف ان تفكيره سيتمخض عن نتيجة، ومن هنا فان الثقة بالنفس والمستقبل، والايمان بالحرية والكرامة، والاستعداد للتضحية، إنما هي شروط مسبقة للتفكير المسؤول.



وعندما نصل الى المرحلة التي نثق فيها بأنفسنا، وبقدراتنا الهائلة التي منحها الله - تعالى - لنا، ونكون مستعدين للتضحية من اجل الفكر والعقيدة، فحينئذ سيكون بإمكاننا التفكير، ليصل بنا تفكيرنا هذا الى شواطئ الابداع والاكتشاف، والفهم الصحيح للحياة، والشعور بالمسؤولية.

مما لاشك فيه إننا كبشر، بإمكاننا أن نغير المعادلة من خلال التفكير المسؤول. فالله تعالى لم يخلق الناس طبقات، طبقة الاوروبيين البيض التي تفكر وتخطط وتصنع وتقود، وطبقة الملونين التي يجب عليها ان تتبع وتقلد وتكون مستعبدة. بل إن الله خلق الناس سواسية في قدراتهم العقلية؛ وعلى هذا فإن الثقة بالافكار هي بداية مرحلة التفكير المسؤول، فلنثق بقدرة عقولنا، ولنحاول أن نجرب هذه الثقة، وعندما يصل تفكيرنا الى هذه النتيجة المطلوبة فلنعرف أن تفكيرنا قد أصبح مسؤولاً.

عقبات في طريق التفكير

والعقبات التي تعترض طريق التفكير كثيرة، وابرز هذه العقبات قلة القراءة رغم أن عصرنا هذا هو عصر العلم، والعلم لا يمكن التعرف عليه إلا من خلال القراءة، فعلينا - إذن - أن نقرأ قراءة متواصلة ومكثفة، ولا بأس بالاستفادة من تجربة الآخرين في هذا المجال، فالشعوب الاوروبية منذ نهضتها كانت تلتهم الكتب إلتهاماً حتى أصبحت المطالعة ملكة ثابتة في شخصياتهم، وخصيصة جليلة في سلوكهم اليومي.

وتتمثل العقبة الاخرى في شيوع مجالس البطالة، والصدقات غير المنتجة بيننا، في حين

أَنَّ علينا أَنْ نحذف هذه الظواهر من حياتنا، وأن نكون جديين شاعرين بالمسؤولية من خلال استغلال اوقاتنا الاستغلال الصحيح والمثمر، والكف عن اللهو والعبث.

الحوار الطريق الى الفكر المسؤول

يتكامل التفكير ويصبح مسؤولاً من خلال الحوار الذي يمثل قضية أساسية في حياتنا. علينا أن نضحي بالكثير من الامور في سبيل تحقيقه، ونعني بالحوار هنا القدرة على ان نكتسب علوم الاخرين لنضيفها الى علومنا، لنصنع من ذلك تركيبة علمية متكاملة.

ونحن نرى أَنَّ بعض الناس لهم آراؤهم الضيقة الخاصة، وللأسف فانهم يتشبثون بهذه الاراء وكأنها قرآن منزل من السماء، وفي مقابل هؤلاء يوجد اناس آخرون يتمتعون برحابة الصدر وسعته، فلا يتعنتون وانما يتنازلون عن آرائهم بمجرد ان يثبت لهم خطأها.

وبالإضافة الى هاتين الفئتين هناك فئة اخرى قلقة في آرائها ومواقفها، متميعة في افكارها، لا تكاد تثبت على رأي واحد، فهي سرعان ما تتغير مواقفها السابقة بمجرد ان يذم الآخرون هذه المواقف.

ونحن نرفض طريقة تفكير الفئة الاولى والاخيرة، ونرى أَنَّ الاستقامة تتمثل في الجادة الوسطى من خلال الاستماع الى آراء الآخرين إستماعاً دقيقاً، ثم عقد المقارنة بين آرائنا وآراء الآخرين، فنفرز ونعزل العناصر الخبيثة من الطيبة، ونقوم بعملية مزاجعة بين العناصر الطيبة، لنخرج بمزيج فكري يمثل المزيج الافضل كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^١



وباختصار: فإنَّ أهم فائدة يمكن أن نكتسبها من جلسائنا هي التحوار معهم بروح ايجابية ببناء، فعلينا أن ننمي قدرة الحوار في انفسنا، لان الحوار المستلزم للفكر المسؤول يفتح أمامنا - كما قلنا - أبواباً جديدة، وآفاقاً واسعة، وهذا التفكير المسؤول يمكننا ان نكتسبه - كما اشرنا الى ذلك - عن طريق تنمية روح الثقة بأفكارنا، والتكثيف من مطالعتنا، ومن خلال تنمية الفكر المسؤول في نفوسنا واذهاننا، لان هذا الفكر يمثل بكل تأكيد بداية الانطلاقة نحو التكامل، والتغيير، والعمل الهادف البناء في سبيل تحقيق الاهداف الالهية، والله الموفق.

الفصل الثالث

الثقافة التبريرية أرضية الفساد السياسي

يعالج القرآن الكريم عبر آياته مشاكل الانسان النفسية والثقافية، فيمهد بذلك الطريق لأن يعالج الانسان مشاكله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها. والذي يتدبر القرآن يستطيع أن يجعل منه شفاء لما في صدره، ومعراجاً يسلك به مدارج الكمال.

ضرورة العودة الى القرآن الكريم

واول ما ينبغي على الامة الاسلامية العمل به هو العودة الى القرآن الكريم، ورفع الحجب التي وضعها الاعداء بين ابناء الامة وبين آيات القرآن، من خلال إبعاد القرآن عن الحياة العملية وتحويله الى كتاب يرتبط بجوانب معينة من حياة الانسان، او عن طريق الايحاء الى المسلمين انهم ليسوا في مستوى التدبر في القرآن، في حين أن الاسلام يعتبر قراءة القرآن والتدبر فيه واجباً حسب نص الآية الكريمة: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^١ والآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^٢.

١ - سورة المزمل، الآية: ٢٠.

٢ - سورة محمد، الآية: ٢٤.



اضف الى ذلك ان الاستماع الى الآيات القرآنية حينما تتلى واجب هو الآخر بنص الآية التي تقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^١، كل ذلك لكي يرفع الاسلام الحجب المختلفة التي تضعها القوى الشيطانية، لكي يبادر الانسان المسلم الى الاستلham من الآيات القرآنية التي تتكفل بحل مشاكلنا المستعصية.

مشاكل الانسان نابعة من تصرفاته

وفي الحقيقة فان المشاكل هي نتاج أفعال الانسان وتصرفاته المختلفة، فلن يرى الانسان في الدنيا والآخرة الا ما كسبته يده، وما عمل بمحض ارادته، فلا يجوز له ان ينتظر الاقدار او الآخرين ليحلوا مشاكله، لأنّ منبع المشاكل كامن في ذات الانسان، فلو كان مبتلى بجرثومة تتوالد بسرعة في جسمه، وحاول رفع آثارها عن طريق المسكّنات، فهل سينجح في ذلك؟

كلا بالطبع، لأنّ اصل المرض موجود في دمه وعروقه، ومن دون القضاء على جذور المرض فان الجرثومة سوف تتكاثر.

وهكذا الحال بالنسبة الى مشاكل الانسان السياسية والإجتماعية التي هي نابعة من ذاته، والتي يؤدي تفاعلها بصورة ظاهرة الى خلق السياسة الحاكمة عليه فتكون اما صالحة واما طاغية، فالسياسة هي عنوان الانسان ورمز تصرفاته، كما اشار الى ذلك النبي ﷺ في قوله: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»^٢ فمجموع العوامل البشرية النفسية والعملية تتفاعل جميعا لتتحول الى السياسة والحكومة والسلطة، والسلطة هي رمز مستوى الانسان.

١- سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

٢- كنز العمال، ج ٦، ص ٨٩.

السياسة مقياس حركة الانسان والمجتمع

واذا كان الأمر هكذا فاننا نستطيع ان نقول إن السياسة هي معيار ومقياس حركة الانسان، وتوجه المجتمع سلبياً أو ايجابياً، وإن معالجة المشكلة السياسية في الامة لا يمكن من دون معالجة سائر المشاكل، سواء بدأنا بطرح القضية سياسياً ثم توجهنا من خلالها الى سائر القضايا النفسية والاجتماعية والاقتصادية، أم بدأنا بعلاج المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية اولاً ثم توجهنا الى معالجة القضايا السياسية.

كيف عالج القرآن الكريم المشكلة السياسية؟

وعندما يعالج القرآن الكريم المشكلة السياسية فانه يشمل بمعالجته هذه كافة أبعادها، ونحن نجد في سورة التوبة معالجة حقيقية للقضايا السياسية. وللأسف فاننا ننتظر طويلاً أن يحمل القدر لنا نصراً من السماء ونحن قاعدون دون حراك، وهذه كلها احلام، والقرآن يستنكر هذا الفهم الخاطئ قائلاً: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَتَّى﴾^١، فلا يحق للانسان ان يجلس بانتظار تحقق أحلامه، فلا بد ان يسعى، فالكون خلق على هذا الاساس ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^٢ فعلياً ان نفهم هذا المنطق القرآني والا اصطدنا بصخور الواقع.

فلا بد من الخروج من الافكار الطفولية المتخلفة التي ابتليت بها الامة، ولكن الذين ينامون على حرير الاحلام قد لا ينفعهم وعظ الانبياء عليهم السلام والأوصياء رغم عظمتهم، وسمو مقامهم، وبلاغة سنتهم، وارتباطهم بالوحي. فلقد أذنبوا قومهم كثيراً، ولكن القليل

١ - سورة النجم، الآية: ٢٤.

٢ - سورة الحجر، الآية: ٨٥.



منهم أصحابوا السمع، واستجابوا للحق، فحلَّ بالمعرضين العذاب الاليم. والقرآن في بعض آياته يعبر بتعبيرات عاطفية عن مختلف الاحاسيس في الانسان فيقول - مثلاً -: ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^١ فالتوجيه انما يكون إتماماً للحجة، ولكي ينتفع به من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، فكفانا هذه التجارب المرة، والآلام المستمرة، فالله - جل شأنه - لم يخلقنا لكي نتألم في هذه الدنيا بشهادة قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^٢.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان لكي يرحمه، ولكي يدفعه الى أن يعمر الارض، ويستغل طبياتها، ومن أجل هذا فقد سخر له كل شيء، وأسجد الملائكة أجمعين لآدم عليه السلام، وما يزال تعالى عند عهده هذا عندما قال: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَغْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾^٣، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^٤، ولكن عدم الفهم العميق للحياة هو الذي يجر الانسان باتجاه تلك المشاكل.

النصر لا يأتي من خلال القوى الغيبية فحسب

ومن ضمن الافكار التبريرية المتخلفة، والتي من شأنها أن تخدِّر الانسان وتجعله يبتعد عن الواقع، هو الفكر الإتكالي على نزول النصر من الغيب، ذلك الفكر الذي يعالجه القرآن الكريم، فينسف من الاساس مقولة أن الله انما ينصر الانسان بالقوى الغيبية فقط، فيقول

١- سورة يس، الآية: ٣٠.

٢- سورة النساء، الآية: ١٤٧.

٣- سورة الجن، الآية: ١٦.

٤- سورة الطلاق، الآية: ٢-٣.

تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^١، فوسيلة النصر هو الانسان نفسه، فاذا تشبعت ارادته بالعزيمة، ونهض لقتال عدوه بيديه ففي هذه الحالة سوف ينزل الله تعالى نصره عليه.

الكرامة لا تستعاد إلا عن طريق التضحيات

إننا لا نستطيع أن ندخل الساحة من دون أن نخرج من إطار أفكارنا التبريرية، وندخل في إطار أفكار الرسالة، ومن جملة هذه الافكار التي يعالجها القرآن الكريم فكرة ان قلوب المؤمنين الذين تعرضوا للاذى والبطش والاضطهاد، وان كرامتهم لا يمكن ان تستعاد إلا من خلال التضحيات وارقة الدماء كما أشار الى ذلك تعالى بقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^٢. فاذا لم يُهرق الدم، وتُبدل التضحيات، فان القلب الذي تراكمت عليه السلبيات، وعشعشت فيه المشاكل واليأس لن يجد خلاصه بأية طريقة اخرى.

ضرورة احداث هزات عنيفة في ضمير المجتمع

ومن آيات اخرى في القرآن الكريم نستوحي أن الافكار المتخلفة، والمفاهيم المخملية الحريرية التي تنام عليها الشعوب المتخلفة لا يمكن ان تُنتزع من قلب الانسان الا عبر هزات إجتماعية عنيفة، من قبيل المواجهة النهضوية الصارخة ضد الطغاة. فالنهضة التغييرية لا تولد بسهولة ويسر بل هي بحاجة الى تضحيات وجهاد وتحديات،

١ - سورة التوبة، الآية: ١٤.

٢ - سورة التوبة، الآية: ١٤.



فنظريات الحضارات في العالم تقرر أنَّ أئمة أمة لا يمكن أن تبني حضارتها، وتكسب استقلالها إلا من خلال التحديات الصارخة. إنَّ السكوت عن الظلم جريمة، وللاسف فان بعضنا قد ارتكب هذه الجريمة من خلال تعاونه مع الانظمة الفاسدة التي تكثف يوماً بعد يوم من ممارساتها القمعية ضد الجماهير.

واجب القادة والعاملين في سبيل الله

وعلى قادة الجماهير، والمنتمين الى الحركات الاسلامية ان يجدوا ويجهدوا في سبيل بلورة أفضل النظريات، فالواحد منا يجب ان يصبح عملاقاً في الفكر والارادة، وانموذجاً في العمل حتى يقود الجماهير في اوقات المحنة والعسرة، ومع ذلك فاذا انتمى الفرد الى حركة رسالية فيجب أن لا يعتقد أنَّ إئتماه هذا يعطيه قدرات هائلة، بل يجب ان يكون همه ان يعطي ويبدل من نفسه، وان يفجر طاقات فكرية وعملية جديدة.

ولذلك يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^١.

هذا هو الجهاد الذي يعني في اللغة: (بذل الوسع) فالجهاد يعني بذل كل جهد، فلا يقل الواحد منا أنه مُتعب، وأنه لا يستطيع مواصلة العمل، لاننا مسؤولون أمام الله تعالى.

والجهاد يجب ان يكون في طريق الحق، والمنتمون الى الحركات الرسالية يجب عليهم ان لا يتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين

ولياً، كما وعليهم ان يتركوا حالة التحزب ليصهروا انفسهم في بوتقة الجماهير.

أما الموضوع الاخر الذي تعالجه الآيات القرآنية في هذا المجال يتمثل في أن الفكر الساذج يجب ان يكون بعيداً عن الجماهير، فالجماهير التي تتخدد ببناء مسجد، او بالاعلام المضلل لا يمكن ان نتوقع منها خيراً، لانها تستمع الى اباطيل الشيطان وافتراءاته. فعن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَصْعَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنْ إِبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إِبْلِيسَ»^١. وقد أشار تعالى الى هذا الموضوع المهم في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ^٢.

فلنجعل من البصائر القرآنية منهاجاً لنا في حياتنا، ومقياساً نميز بواسطته الخبيث من الطيب، ولنتخل عن الثقافة التبريرية المقيتة التي تعد مصدر التخلف، ومنشأ المشاكل والمآسي التي نعاني منها في جميع مجالات حياتنا وخصوصاً المجال السياسي منها.

١ - بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٣٩.

٢ - سورة التوبة، الآية: ١٧- ١٨.

الفصل الرابع

الزلازل الثقافي قبل النهضة الشاملة

يدور بين المفكرين جدل طويل حول تحديد نقطة البدء في حركة الانسان نحو الاصلاح والتكامل، فمنهم من يؤكد على العامل السياسي أو الاقتصادي أو الجغرافي، بينما يرى البعض الآخر أنَّ التربية الثقافية هي المنطلق الاساس لبناء الحضارة البشرية.

ولا ريب إنَّ الثقافة - التي هي رؤية الانسان للحياة، والقوالب الجاهزة التي يصب فيها معلوماته وتجاربه واحاسيسه - ذات أثرٍ أكثر فاعليَّةً وحسماً من أي عامل آخر.

إنَّ الإصلاح الثقافي يسبق الفاعلية الاصلاحية، والنهضة تسبق الفاعليات النهضوية الاخرى، كما إنَّ نفس التبريرات التي تكرّس الانحراف، وهدم الافكار التي يعتمد عليها المنحرفون، يسبقان نفس الانظمة القائمة على هذا الاساس.

ترى من الذي ينبغي عليه أن ينقذ الانسان من الأخطار المحدقة به؟ هل الطبيعة أم الانسان نفسه؟

الانسان - بالطبع - هو الذي لابد أن يحرك عجلة الحياة، وأن ينقذ نفسه بارادته، وبما حباه الله من قدرات ومواهب.

وهنا يتبادر الى الذهن السؤال التالي: ما الذي يحرك الانسان في



هذا الاتجاه او ذاك؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول: إنَّ الانسان إما أن يكون محرَّكاً من قبل الآخرين، أو أنه هو الذي يحرك نفسه بنفسه، ونحن لسنا من أنصار النظرية القائلة بأنَّ هناك إنساناً واحداً يحرك الآخرين نحو الاصلاح، لأنَّ مآل هذه النظرية الاعتقاد بوجود ايجاد تسلط من نوع جديد على المجتمع البشري، فالانسان الواحد الذي يحرك الجماهير نحو إسقاط نظام وإقامة نظام آخر مكانه سيتحول مع مرور الزمان وبفعل عوامل مختلفة الى طاغوت آخر يشبه سلفه الذي سقط وتهاوى عرشه.

وإزاء ذلك لا مناص لنا من تأييد تلك النظرية التي تنسجم تماماً مع السنن والقوانين الطبيعية والتي تقول إنَّ الانسان يجب أنْ يحرك نفسه بنفسه، وان يصلح واقعه بعد ان يثور بنفسه على الاستعباد والانحراف من خلال تغيير فكره وثقافته ورؤيته الى الحياة.

فهناك ركام من الافكار الفاسدة التي يعتمد عليها كل طاغوت، وتخضع لها كل أمة رضيت بسلطة هذا الطاغوت، والنهضة الاصلاحية لا يمكن ان تنتصر مع وجود الركام الذي يحجب بين الانسان وبين رؤية واقعه.

ثقافة فصل الدين عن السياسة

وعلى سبيل المثال فان الثقافة التي ترى أنَّ الدين يجب ان يبقى بعيداً عن السياسة كان لها تأثير سلبي كبير على الحركات التحريرية في البلاد الاسلامية، وهذه الثقافة تقوم على فكرتين شيطانيتين خبيثتين هما:

١- إنَّ السياسة وضعت لتكون دجلاً ونفاقاً وكذباً وارهاباً وطغياناً، وان

هذه الصفات هي من طبيعتها اللازمة لها، فلا يمكن ان يتعامل السياسي الا بتلك الاساليب المقيتة.

٢- إن من المفروض بالمتدينين ان يقبعوا في مساجدهم أو في بيوتهم وتكايهم، وأن يتركوا الحكام يفعلون ما يشاؤون.

ترى هل يعقل إن ديناً سماوياً شرّعه الله سبحانه وتعالى يفرض على الناس ان يتركوا السياسة ويتعدوا عن ميادينها العملية، في حين إن كل بنود هذا الدين إنما هي في جوهرها سياسة، فالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتولي والتبري، وعقود البيع والشراء، والزواج والطلاق وما الى ذلك هي احكام وانظمة شرعية تدخل عالم السياسة من أوسع أبوابه.

الثقافة القدرية

وهناك من يفكر بأن توالي الحكومات الجائرة المتعاقبة على البلاد قدر من الاقدار، ومثل هذا التفكير يعتقد به - للاسف - أكثر الناس في بلادنا، في حين ان هذا افتراء على الله سبحانه، ونسبة الظلم اليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

إن هذه الفكرة القدرية هي التي قال عنها رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً: «لُعِنَتِ الْقَدَرِيَّةُ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا. قِيلَ: وَمَنِ الْقَدَرِيَّةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: قَوْمٌ يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْمَعَاصِيَ وَعَذَّبَهُمْ عَلَيْهَا»^١.

ومثل هذه الفكرة هي التي جعلت حكام بني امية وبني العباس يسيطرون - لقرون متطاولة - على رقاب أمتنا، ومن ورائهم علماء السوء

١- بحار الأنوار، ج ٥، ص ٤٧.



يدعمونهم.

إن الحكومات الجائرة ليست بالضرورة من الله، بل إنها غالباً ما تقوم بفعل البشر، والناس محاسبون على موقفهم منها إن هم أيّدوها ورضوا بها، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾!

الثقافة التبريرية

وهناك أيضاً اصحاب الفكر التبريري الذين يقولون: ليس في الامكان ابداع مما كان.

وهنا أوجه كلمة الى الحكام فأقول: إن الحاكم الذي لا يستطيع أن يحكم البلاد، ولا يملك الكفاءة لكي يقود هذه السفينة في الامواج العاتية، فلتكن لديه شجاعة الانسحاب سالماً الى قاعدته؛ فليس من الصحيح أن يفرض شخص نفسه حاكماً على الناس ثم يبرّر سياساته الخاطئة مدّعياً أن ليس في إمكانه افضل مما هو عليه!

هذا من جهة الحاكم، أما من جهة المحكوم، فعليه أن يكون مراقباً وناقداً للنظام الحاكم؛ فلا يصغي الى التبريرات الباطلة التي تسعى لتكريس الواقع المنحرف، وإلا أدى به الأمر الى ان يكون أداة بيد الظالمين.

مسؤولية الثقافة

لابد - اذن - من أن ننسف الاسس الثقافية والفكرية التي قامت

عليها الانظمة الفاسدة، وإلا فإنها ستبقى، ولا بد أن نقوم بزلزال فكري في بلادنا نهدم به الكثير من القناعات المغلوطة، وإلا بقينا وفكر التجزئة يفتت قلوبنا ويحطم نفسياتنا وآمالنا، والتبرير ينخر في أعماقنا، والافكار القدرية تحجبنا عن إدراك الحقيقة، وفهم معادلات الحياة. ومن ضمن هذه الافكار المزيفة التي اختلقها الاستعمار، وتلقفتها القوى الجاهلية المنافقة في بلادنا، هي الافكار التي تكرس حالة التجزئة.

إن المفكرين وبالذات الاسلاميين مدعوون اليوم بإلحاح الى أن ينسفوا جذور الفساد المتمثل في الثقافة المنحرفة، وهنا تكمن مسؤولية المفكرين وجهادهم لنشر الحقائق، وهذا ما قال عنه الإمام الصادق عليه السلام حين قارن بين دماء الشهداء ومداد العلماء بقوله:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَوُضِعَتِ الْمَوَازِينُ، فَتَوَزَنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِدَادِ الْعُلَمَاءِ، فَيَزَجُّ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ»^١.

إن صاحب القلم الحر يلاحق شخصياً كما تلاحق افكاره ونتاجاته، فقد أصبح إقتناء الكتب التي تعرض الحقيقة على الناس، وتفصح سوء الانظمة الجائرة المتسلطة اكبر جريمة من اقتناء الاسلحة في بعض بلاد المسلمين.

وهنا يجب على المفكر الاسلامي والمثقف المسلم أن يقف بكل صلابة يناهض هذا الجور؛ فلولا الاقلام الجريئة التي تزلزل كيان الثقافة الفاسد، وتنسف الاسس القدرية والتبريرية، فإن هذه الكيانات الجاهلية ستبقى، ويبقى معها الظلم والاستضعاف.



ولذلك على الاقلام الحرة، والنفوس الأبيّة، وعلى المجاهدين
الحقيقيين ان يغمسوا ريشة اقلامهم بدماء شهدائهم ليرسموا خريطة
المستقبل، والله الموفق ونعم المستعان.

الفصل الخامس

الجهاد الثقافي بعد الانتصار

الصراع بين الخير والشر، الذي يلخص فلسفة الحياة، وتتجلى فيه حكمة وجود الانسان في هذه الدنيا، يعبر عن نفسه بصور شتى؛ فمرة يكون صراعاً سياسياً، وأخرى اجتماعياً، وثالثة عسكرياً، ولكن أبرز صور هذا الصراع هو الصراع الثقافي، ذلك لأنّ الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع تحديد وجهة حياته المتمثلة في الثقافة، فثقافته هي التي تحدّد كل مفردات حياته، ولا فرق في ذلك بين انسان وآخر مهما كانت الفروق بينهما.

الصراع الثقافي هو الصراع الاول

ولذلك فإنّ الصراع الثقافي يبقى هو الصراع الاول، ولأهمية الثقافة لابد أن يكون الرجال الذين يحملونها ويرفعون مشعلها ملتزمين بها، صابرين على الاذى الذي قد يلحقهم بسببها. فاذا كان حامل هذه الثقافة رجلاً جباناً ضعيف الارادة فمن الطبيعي أن يبيعها للآخرين بثمن بخس، وفي هذه الحالة سوف تغرق الجماهير في بحر الظلام والتخلف، وهذا يعني أنّ الفساد سيغمرهم، والانحراف يهيمن عليهم، وتخيم عليهم الضلالات، ويكون الكفر والنفاق ديدنهم.



جاء في الحديث أنه:

قِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: مَنْ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَ أئِمَّةِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى؟
قَالَ: «الْعُلَمَاءُ إِذَا صَلَحُوا».

قِيلَ: فَمَنْ شِرَارُ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَنُمْرُودَ وَبَعْدَ الْمُتَسَمِّينَ بِأَسْمَائِكُمْ وَالْمُتَلَقِّينَ بِأَلْقَابِكُمْ وَالْآخِذِينَ لَا مُمْكِنَتَكُمْ وَالْمُتَأَمِّرِينَ فِي مَمَالِكِكُمْ؟

قَالَ: «الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا. هُمْ الْمُظْهَرُونَ لِلْأَبَاطِيلِ، الْكَاتِمُونَ لِلْحَقَائِقِ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا»^١.

وفي الحقيقة فإنَّ الامام علي عليه السلام في كلمته هذه قد حدّد داء الامة ودواءها.

وفي حديث آخر يحدد عليه السلام سعادة الامة أو شقاءها بصلاح أو فساد طائفتين: هما العلماء والامراء، حيث قال عليه السلام: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ: الْفُقَهَاءُ وَالْأُمَرَاءُ»^٢، والملاحظ أنَّ النبي عليه السلام قد بدأ بالعلماء، لأنَّ الامير قد يكون قوياً مقتدراً ولكنه لا يطالب بالوعي والعلم والثقافة والدعوة الى الله، وحتى لو كان الامير عالماً فانه لا يستطيع ان يطبق العدالة في مجتمع فاسد متخلف؛ فالمجتمع يجب أن يكون صالحاً او على الاقل يحمل بذور الصلاح، والذي يصلح هذا المجتمع هو العالم، فاذا أصبح العالم هو الداء فأين نجد الدواء اذن؟

العالم هو حامل راية الثقافة

فالعالم هو الذي يجهّز الناس بسلاح الثقافة، وهو الذي يمنحهم الثقة بانفسهم لكي ينهضوا للمطالبة بحقوقهم من خلال نشر الثقافة الرسالية الصحيحة.

والعلماء هم الذين يمثلون القيادات التي يجب أن نعمل ونتحرك تحت لوائها، ومع هذه القيادات سوف نحشر يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^١، فالله تعالى سوف يثيبنا على اعمالنا الصالحة مهما صغرت، فهو يسجل اعمالنا في كتاب لا يضل ولا ينسى، وهو في نفس الوقت يعلم خائنة الاعين، وما تخفي الصدور.

وهكذا فان من يحمل ثقافة النور يجب أن يكون في مستواها استقامة وصبراً وتحدياً.. حتى يحمل هذا النور الى من يحتاج اليه، وإلاّ فانه سيتخبط في الظلام، وسيدخل معه الناس في هذا الظلام.

من مظاهر الصراع الثقافي

ومن مظاهر الصراع الثقافي، الصراع السياسي الذي هو ليس إلاّ واجهة ظاهرة لسلسلة طويلة من الصراعات الاخرى، وعندما نمعن النظر في فريقين يقتتلان نجد أحدهم يحمل شعارات ايمانية، والآخر شعارات جاهلية، وفي هذه الحالة نستنتج أنّ هذا الصراع هو صراع سياسي يعكس صراعاً ايديولوجياً وثقافياً واقتصادياً.

وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر الاكيد، ولكن تبقى المسؤولية على عاتق المؤمنين بعد هذا النصر، فبعد أن يشكل الانسان المؤمن



الدولة الاسلامية تبدأ الاخطار الحقيقية تواجهه، والخطر الاكبر هو الخطر الثقافي المتمثل في الافكار الجاهلية التي تحاول التسرب في المجتمع الايماني.

ولقد كشف لنا القرآن الكريم جميع هذه الموضوعات بشكل غير مباشر، وعلينا أن نستخلص منه ارشاداته ووصاياه في هذا الصدد من خلال استخدام وعينا وفطنتنا؛ فقصة بني اسرائيل تقدم لنا حالة من التأثير بالثقافة الجاهلية بعد الانتصار، فلقد عاد بنو اسرائيل الى عبادة الاوثان بعد ان حررهم موسى ﷺ من أسر وعبودية فرعون بمجرد ان رأوا قوماً عاكفين على عبادة الاصنام، وذلك نتيجة لتأثرهم بالثقافة الفرعونية الوثنية التي درجوا عليها اثناء رزحهم تحت ظلم الطاغية.

ونحن بحاجة الى جهود دؤوبة متواصلة من اجل تصفية رواسب الثقافة الجاهلية التي إما أن يكون مصدرها التبريرات التي يخلقها الانسان لنفسه، وإما أن تكون مستوردة من مصادر خارجية.

الثقافة الجاهلية ليست إلا تبريرات وأباطيل

وفي الحقيقة فإن الثقافة الجاهلية ما هي إلا مجموعة من التبريرات والأباطيل، التي يسارع الانسان الى استقبالها والتأثر بها في حالة فقدانه للوعي والادراك، وفي حالة سيطرة روح الانهزام والتبرير عليه، وبهذه الروح يتشبث بتلك الثقافة.

وعلى هذا فحينما تهبط روح الأمم فإنها تبدأ بالتفتيش عن الأفكار التبريرية، فإما أن تخلقها وتبتدعها هي بنفسها، وإما أن تستوردها من هنا وهناك، كما صدر ذلك من بني اسرائيل عندما أمرهم موسى ﷺ بالجهاد والقتال فأخذوا يبحثون عن الأعذار والحجج في سبيل التملص

من المسؤولية، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾^١. ولقد سعى النبي ﷺ والائمة ﷺ من أجل القضاء على هذه الثقافة التبريرية الجاهلية، فكان هذا السعي يمثل أهم ركائز مسؤوليتهم، ومحاور جهادهم من أجل تصفية رواسب الجاهلية بكل أبعادها من الأمة.

الجهاد الثقافي هو الجهاد الأعظم

إنّ الجهاد الأعظم إنما يبدأ بعد الانتصار، لأن أعداء الاسلام يبدؤون بمحاربتنا بشكل خفي ومن خلال أفكارهم، وثقافتهم الجاهلية، وإزالة مثل هذه الرواسب ليس عملاً هيناً، لأنه ليس مجرد عمل إعلامي وتبليغي فحسب، بل علينا أن نخوض صراعاً اجتماعياً في هذا السبيل، فكل فكر يتمثل في كتلة اجتماعية، وعندما تريد أن تقاوم هذا الفكر فلا بد من أن تواجه الكتلة التي تمثله.

والسؤال المطروح هنا هو: كيف نواجه ذلك الفكر؟

نحن لا نستطيع أن نواجهه بالصراع الدموي، وإنما بالجدال بالتي هي أحسن؛ أي من خلال الحوار والبرهان والإقناع، يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بَالَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٢. ومن أبرز مفردات الثقافة الجاهلية هو ما مُنِيت به امتنا الاسلامية من شيوع الحالات الاقليمية والعنصرية، في حين أنّ العالم يتجه اليوم نحو الوحدة والتضامن والتعاقد التي أصبحت ضرورة من ضروراته، فلا يمكن لدولة ما اليوم أن تغلق حدودها لتعيش وحدها وذلك بسبب تداخل المصالح.

١ - سورة المائدة، الآية: ٢٤.

٢ - سورة النحل، الآية: ١٢٥.



وإزاء ذلك نرى المسلمين تمرّق كيانهـم الاختلافات والحمّيات العنصرية والإقليمية وما شاكل ذلك من معايير جاهلية يجب ان نتجاوزها لكي نستطيع تحدي الاستكبار الجاهلي، وقد كانت الوحدة من أهم العناصر التي أمرنا الله تعالى أن نوفرها في انفسنا، اذ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^١. وأيضاً فإنّ الله قد أمرنا أن نتوجه الى القبلة الواحدة أينما كنا، وان نحج في زمن واحد، لكي تنصهر في بوتقة الحج كل العناصر من البلدان المختلفة، واللغات العديدة، كل ذلك لتحقيق هذا الهدف المقدس وهو توحيد الامة الاسلامية.

طلّاع الامة مدعوة الى الوحدة

وأنا أوجّه ندائي الى طلّاع الامة بالذات، فنحن نعيش حالة تجزئة عميقة في أنفسنا وفي أفكارنا وثقافتنا الى درجة أنّ كل واحد منا قد حدد نفسه في دائرة ضيقة، في حين إنّ من اوليات العمل الجهادي اليوم هو أن نفهم عصرنا وديننا الذي يأمرنا بالوحدة، كما ان عصرنا أيضاً يفرض علينا هذه الوحدة، فما بالك بأمر يأمر به الدين، ويتطلبه العصر والزمن؟

علينا - إذن - أن نحطّم اصنام الثقافة الجاهلية الدخيلة، ونمحوها من أوساطنا، وهكذا يكون بإمكاننا أن نربي في انفسنا تلك النظرة الواحدة؛ النظرة الايمانية التوحيدية، وحينئذ تبدأ الخطوة الاولى باتجاه التخلص من الثقافة الجاهلية وتحقيق الوحدة.

وباختصار فاننا نحتاج بعد النصر الى نهضة ثقافية، الى الاهتمام

بالاعلام والفكر النير، من أجل تصفية أجوائنا من الافكار الغربية الدخيلة، ومن الاقليميات والعنصريات حتى نبدأ من خلال ذلك المسيرة الظافرة نحو بناء مجتمع اسلامي نقي خالص إن شاء الله.

الباب الثاني
التحدي الثقافي

الفصل الأول

كيف نكتشف الثقافة الدخيلة؟

من أجل إدراك الحقائق الالهية يحتاج الانسان الى البصيرة، إذ من دونها لا يمكن أن يرى حقائق الاشياء، وبالإضافة الى (البصيرة) فإنه يحتاج الى (النور) أيضاً، والنور هو الإرشاد والتوجيه والثقافة.

حاجة العقل الى نور الوحي

وقد يقول قائل: إن للإنسان عقلاً، فبعقله يدرك الحقائق. ولكن هل يكفي العقل وحده؟ طبعاً لا؛ فلو كان العقل وحده يكفي لكان كل الناس علماء، فالامر الذي يحتاجه الانسان بعد العقل هو التعليم، فلا بد ان يكون هناك من يعلمه ويرشده ويذكره لكي يفهم حقيقة الاشياء.

ان التعليم هو النور الذي يكتشف به الإنسان الحقائق، والنور - بتعبير أدق - هو القرآن الكريم، فهو النور والبرهان والصراط المستقيم. والمشكلة الاساسية التي تتفرع منها سائر المشاكل هي ان الانسان لا يبحث عن النور والبرهان، أي أنّ هناك ثقافات دخيلة تنفذ الى قلب الانسان وتحجبه عن النور الإلهي.

ومن العجيب إنّ الانسان يهتم بطعامه المادي، ويحرص على أن



يأكل أفضل الاطعمة واكثرها فائدة، ولكنه عندما يريد ان يطعم دماغه الطعام المعنوي فانه لا يبحث عما يفيد، بل المهم عنده أن يملأ عقله بما يتلقاه من الاذاعات، والفضائيات، وشبكة الأنترنت، وما شاكل، سواء كان نافعاً أم ضاراً، وهو لا يدري أن مثل هذه الافكار التي تغزو عقله هي التي ترسم طريقة حياته من دون ان يشعر.

وفي الحديث الشريف عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قول الله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^١ قَالَ الراوي: قُلْتُ: مَا طَعَامُهُ؟ قَالَ: «عِلْمُهُ الَّذِي يَأْخُذُهُ مِمَّنْ يَأْخُذُهُ»^٢.

أي: فلينظر الانسان الى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه.

فطعام الدماغ - اذن - هو العلم والثقافة، ونحن نتعرض الان الى موجات عنيفة ومتلاحقة من الثقافات الدخيلة، بينما في مقابل ذلك نرى أن القرآن ما يزال غريباً بيننا؛ انه يُتلى في مجالسنا ولكننا غافلون عنه، وكأن الخالق تعالى لم يقل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^٣ اي علينا ان نتدبر فيه فهو النور والبرهان اللذان اذا تسلحنا بهما لم تستطع الثقافات الدخيلة ان تدخل في اعماقنا.

الفصل بين الثقافتين الدخيلة والأصيلة

ولعل سائلاً يسأل: ما هي الثقافة الدخيلة، الغريبة عن الفطرة، الشاذة عن الحق؟ وكيف نميز هذه الثقافة عن الثقافة الأصيلة الحققة؟
إنّ الثقافة الحققة هي الثقافة التي تدعوك الى تحمل المسؤولية، وفي مقابل ذلك فإنّ الثقافة الباطلة هي التي تبعدك عن وظائفك وواجباتك

١- سورة عبس، الآية: ٢٤.

٢- المحاسن، ج ١، ص ٢٢٠.

٣- سورة محمد، الآية: ٢٤.

الرسالية، وتبرّر لك الضجر والتملص من العمل، والهروب من تحمل المسؤولية.

إنّ القرآن الكريم كثيراً ما يؤكد على هذه الحقيقة، فتجده يؤكد على مسؤولية الانسان في أغلب آياته، وضرورة أن ينبذ الثقافات الدخيلة التي تبرر حالة الانفلات والتملص من المسؤولية، فمرة يحدثنا عن بني اسرائيل الذين قالوا إنّ الله سوف لا يعذبهم لأنهم أبناء الله وأحباؤه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^١ ويرد عليهم القرآن بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^٢ وفي مواضع أخرى يحدثنا عن النصارى الذين غالوا في دينهم فقالوا ان عيسى ابن الله لكي يخلصوا انفسهم من تبعة المسؤولية، في حين يجيبهم الخالق تعالى قائلاً:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^٣.

فصحيح أن عيسى نبيّ عظيم وجليل القدر عند الله تعالى ولكنكم بحاجة الى الايمان حتى لو كنتم متمسكين بعيسى ومحبين له، فالايمان بهذا النبي وحده لا يكفي بل عليكم ان تؤمنوا بالله، وبكل رسل الله.

١ - سورة المائدة، الآية: ١٨.

٢ - سورة النساء، الآية: ١٢٣.

٣ - سورة النساء، الآية: ١٧١.



وبالإضافة الى ذلك هناك فكرة تبريرية أخرى هي التذرع بالجهل وعدم المعرفة، والقرآن ينسف هذه الفكرة، ويأمرنا بالتعلم والبحث عن الحقيقة، وللأسف فإنّ هناك اناساً حالهم كحال من يغلق على نفسه باب غرفته ويسدل الستائر، ثم يقول ان الشمس ليست مشرقة!
ان القرآن الكريم يعالج قضية التكذيب من هذه الزاوية، ونحن الان في اوضاعنا الحالية نتعرض لثقافات دخيلة، وقبل ان اشير الى هذه الثقافات اود ان اذكر القارئ الكريم ببعض المذاهب الدخيلة التي ظهرت في العصور الاسلامية الاولى لعلاقتها الوثيقة بالثقافات الدخيلة التي تغزونا اليوم، ومنها مذهب (المرجئة).

ثقافات تبريرية مختلفة

يقول أصحاب هذا المذهب إنّ من حق الانسان أن يفعل ما يشاء دون ان يفكر في آخرته، وهناك مجموعة اخرى هم من الغلاة في الدين، وهم يرون ان الناس كلهم مصيرهم الى النار، وأنّ فاعل الكبيرة كافر، وهذه الفكرة هي الاخرى مصدرها عدم الشعور بالمسؤولية لانهم كانوا يتفوقعون في بيوتهم.

وهناك فكرة قدرية تقول إن أعمال الانسان كلها مصدرها الله تعالى، وفي المقابل توجد فكرة قدرية أخرى يسمى اصحابها ب "المفوضة" تقول: إن الله قد فوّض الأمور إلينا، فان شئنا ادينا فرائضنا الدينية، وان شئنا لم نؤدها، فنحن أحرار في صياغة القوانين لانفسنا.

وهاتان الفكرتان تنتهيان الى فكرة واحدة هي "اللامسؤولية"، أي إنّ الله تعالى لم يأمرنا بشيء، فنحن - اذن - لسنا مسؤولين، إنما الله تعالى هو المسؤول، لأنه أراد أن يبعدنا عن المسؤولية!

مثل هذه الافكار ما تزال منتشرة بيننا بشكل او بآخر، كقول البعض؛ ان الذين يعملون في سبيل الله هدفهم الرياء، والحصول على المناصب، والوجاهة الاجتماعية.. فيتكلمون ضد الجميع لكي يبرروا واقعهم. وهناك أفكار سلبية اخرى تشيع في ساحتنا، منها (الغلو) من خلال تكفير الناس كلهم، ومن خلال العجب بالاعمال، وسيطرة الغرور على النفس.

ان ذلك الانسان الذي يؤدي بعض الركعات من الصلاة، ويعمل ببعض المظاهر العامة للاسلام ويتناول بلسانه على العاملين والمجاهدين، مثل هذا الانسان عليه ان لا يعجب بعبادته وصلاته وصومه، لانه لا يعلم هل يقبل الله منه عبادته هذه ام لا.

إنَّ الله سبحانه وتعالى يريد من الانسان ان يرسخ حالة التواضع في نفسه، فليس من الصحيح ان يمتنَّ العبد على الله تعالى بمجرد أن يؤدي الصلاة، وليس من الصحيح أن يأتي بالتبريرات عندما تنتهياً فرص العمل، وتتوجب عليه المسؤولية.

الفصل الثاني

السبيل الى تحدي الثقافة الطاغوتية

الثورة الثقافية في الامة تبدأ من مبدأ الرفض لأفكار الطاغوت، فمن دون اجتناب أفكار الطاغوت لا يمكن أن يكمل ايمان المؤمن، ففي حالة عدم رفضك وتحديك ومقاومتك لسيل الافكار الطاغوتية فانها سوف تنحدر الى قلبك من حيث تشعر أو لا تشعر.

فالطاغوت لا يدعك تختار أفكارك بحرية، لانه يفرض عليك افكاراً باطلة تؤيد طغيانه وجبروته، ولذلك فانك لا تستطيع أن تكون محايداً في الفكر، بل لابد أن تكون متمسكاً في هذا المجال بالحق، لأنّ هناك من يحاول أن يجرك الى الباطل من خلال استخدام الوسائل الاعلامية والدعائية المختلفة؛ فان لم تكن متحدياً لثقافتهم فان ثقافتهم هذه سوف تتحداك لتنفذ الى ضميرك.

تحدي الثقافة الطاغوتية

فالطاغوت لا ينتظر منك أن تأتي إليه لتستجيب لأفكاره، بل يبادر الى توجيه أمواج الفكر الباطل الى ذهنك بحيث لا تستطيع ان تمنع تأثيرها عليك إلا من خلال رفضها بالانطلاق من مبدأ التقوى، وتقوية الايمان بالاخرة، ولذلك نرى الآيات القرآنية تؤكد كثيراً على هذا



الجانب في معرض حديثها عن موضوع مقاومة الثقافة الجاهلية، كما نلاحظ ذلك في الآية الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^١.

فالإنسان المؤمن ينبغي عليه أن لا يستوحي أفكاره من الجبت والطاغوت، بل من الله تعالى الذي يريد أن يميز بين الإنسان المؤمن والكافر، ويريد للإنسان المؤمن أن يتمتع بشخصية متميزة مستقلة ازاء الكافر؛ وهنا تكمن بداية الرفض والتحدي والمقاومة.

فالاجدر بالإنسان المؤمن أن يتقي العذاب الاخروي، وأن يخشى ربه، لا أن يخشى الطاغوت، فمن لم يتمتع بصفة الخوف من الله تعالى لا يمكنه ان يمتلك شجاعة الرفض وبطولة التحدي.

فعلينا - اذن - ان نجتنب الطاغوت ونرفضه ونقاومه لنعود الى الله تعالى بالصلاة والدعاء والتدبر في القرآن الكريم؛ وقد جاء في هذا الكتاب العظيم حول ضرورة عدم الاتباع المطلق والاعمى لكل ما يُعرض علينا من افكار: ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الظَّلْمُوتُ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ﴾^٢.

ضرورة التوجه الى القرآن

وفي آيات عديدة من القرآن الكريم يشير تعالى الى ضرورة التوجه الى القرآن ذلك لان هذا الكتاب يثير دفائن العقل، ويبلور الرؤية، ويمنحنا البصيرة، فالإنسان يعيش خضم الافكار المتضاربة طيلة يومه، وعليه أن يميّز بين هذه الافكار، ولا يمكن ذلك إلا من خلال الرجوع الى القرآن.

١- سورة الزمر، الآية: ١٤.

٢- سورة الزمر، الآية: ١٧-١٨.

ذلك لأنَّ العقل من دون الوحي لا فائدة ترجى من ورائه، فنحن بحاجة الى الوحي قبل العقل، لأنَّ الوحي هو الذي يثير العقل ويبعث النشاط فيه، ذلك لان عقل الانسان من الممكن ان يغفو، وتحيط به الحجب، والذي يمزق هذه الحجب هو الوحي المتمثل في القرآن. وعلينا أن نستمر في علاقتنا بالوحي لكي نواصل طريقنا الى الله، فإنَّ الشيطان وأتباعه من البشر قد يضلُّون الإنسان المؤمن لصدِّه عن مواصلة طريقه، فقد جاء في الحديث عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِمًا مَفْتُونًا بِالْذُّنْيَا فَيَصُدَّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، فَإِنَّ أَوَّلَئِكَ قُطَاعُ طَرِيقِ عِبَادِي الْمُتَرِيدِينَ. إِنَّ أَدْنَى مَا أَنَا صَانِعٌ بِهِمْ أَنْ أَنْزِعَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي عَنْ قُلُوبِهِمْ».

فالناس خُلِقُوا على فطرتهم ولكنَّ علماء السوء هم الذين يصدُّون عن سبيل الله.

وأسباب سقوط الانسان كثيرة ومختلفة، فلعل كلمة واحدة قد تؤدي الى سقوط الانسان في نار جهنم.

تنمية القدرة على التمييز بين الافكار

إذن، فمن الضروري ان ينمي الانسان المؤمن في نفسه القدرة على التمييز بين الافكار؛ فيأخذ بالحق وينبذ الباطل، ولا بأس ان تكون عملية فرز الافكار وتحديد الصالح والضار منها عملية جماعية من خلال المؤسسات الثقافية والاعلامية، ومن خلال الحوزات العلمية. فلا بد - اذن - من أن نتنظم ضمن مجموعات متعاونة على البر

والتقوى لنحارب الطاغوت وأفكاره إذا لم نستطع ان نقوم بهذا الواجب الشرعي كأفراد.

تكثيف المطالعات وبرامج بناء الذات

وبالإضافة الى ذلك علينا أن نكشف مطالعاتنا الاسلامية وخصوصاً التدبر في القرآن الكريم من خلال استغلال اوقات الفراغ لهذا الغرض. ولقد كان من ابرز صفات الحوزة العلمية على مر تأريخها أنها كانت تشجع المبادرات والطموحات؛ فالى جانب الدروس التقليدية لها كانت لديها برامج للمطالعة، وبناء الذات، وحفظ الآيات القرآنية والتدبر فيها، دون ان تدع فرصة زمنية إلا وتستثمرها في سبيل التسليح بالثقافة الاسلامية.

وهذا هو ما نحتاج اليه ونحن نواجه الطاغوت، وفي هذا المجال يجب ان تتحول الحوزات العلمية بجهد ومساعي علمائها وطلابها الى جهاز لتصفية الافكار، ومقاومة الضالة منها، كما اكد على ذلك النبي ﷺ في قوله: «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لُعْنَةُ اللَّهِ»^١.

واللعنة الالهية تعني ان الله تعالى سيطرد هذا العالم من رحمته. وأي بدعة اكبر من الافكار الجاهلية التي تدخل بلادنا بالجملة؟! فعلينا ان نتسلح بالعلم، وان لا يكون همنا الفراغ من قراءة الكتب، بل التفقه في المسائل والافكار التي تعرض علينا، فمثل هذا التفقه سيكون سبباً لنجاة الملايين من البشر، وسبباً لنجاة انفسنا بالدرجة الاولى. وعلينا أن لا ننسى إنَّ تحقيق هذا الهدف العظيم لا يمكن الا بالانابة

الى الله، وبالابتغال في جوف الليل، والتضرع اليه تعالى لطلب التوفيق منه لاجتناب المحرمات، وتزكية الذات؛ فنحن إن لم نقم بتزكية انفسنا، ولم نتصل برحاب قدسه تعالى، فمن الصعب جداً ان نحصل على نور المعرفة، ونور القرآن.

الفصل الثالث

كيف نقاوم الثقافة الجاهلية؟

من المسؤوليات الاساسية لكل رسالي يهدف الى تغيير المجتمع، معرفة الثقافة التي تسود المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا يعني أن لا يكتفي بمعرفة الصبغة العامة للثقافة الاجتماعية، وهل هي متخلفة رجعية أم اسلامية، بل عليه أن يتعرف ايضاً على كل فكرة تنتشر في هذا المجتمع.

وان معرفة جزئيات الثقافة تهدينا الى وعي شخصية المجتمع، لأنّ البناء الاساسي لشخصية الانسان قائم على ثقافته، وبالتالي فان معرفة تفاصيل الثقافة هو فك لألغاز واسرار الانسان. وهنا تطرح التساؤلات التالية:

- ١- كيف تتم معرفة الثقافة؟ وما هو مقياسها؟
- ٢- ماذا علينا أن نفعله تجاه الثقافة الباطلة التي تعرفنا عليها؟
- ٣- إذا ما تعرفنا على ثقافة باطلة، فهل يجب علينا أن نبينها ثم نردها، ام نردها فحسب؟

الثقافة التبيرية

وقبل الإجابة على هذه التساؤلات، ينبغي ان نمهد لذلك بمقدمة اساسية تتمثل في أنّ الانسان قادر على ان يبرر مواقفه بخلق ثقافة كاذبة



لنفسه، فالثقافة هي مجموعة افكار متماسكة، وقد تكون هذه الافكار نابعة من صلب الواقع وعين الحقيقة، وقد تكون نابعة من خواطر الفكر، وتموجات الذهن البشري، فقد تفكر لتعمل، وقد تفكر بانك عملت؛ أي إنَّ الثقافة من الممكن ان تكون دافعة للعمل، وقد يكون العمل هو منشأ الثقافة. وعلى سبيل المثال فانك تحاول ان تبحث عن ثقافة تبرر اعمالك اذا ما كذبت ونافقت، وتهاونت بصلاتك، وتكاسلت عن عملك.

إن الإنسان لا يتعرض لهجمات النقد مكشوفاً، وإنما يحاول أن يستتر بمتراس، ومتراس الانسان في هذه الحالات ثقافته التبريرية، وحتى الاطفال يلوذون الى مثل هذه الثقافة في تبرير اعمالهم المختلفة. وحالة التبرير هذه، هي مفتاح فهمنا للثقافة، فقبل كل شيء علينا أن نطرح على انفسنا السؤال التالي عندما نستمع الى كلام الاخرين: لماذا يقول هذا الانسان هذا الكلام، ومن هو المنتفع منه؟ وعندما نقرأ في وسيلة إعلامية موضوعاً ما نطرح على أنفسنا السؤال التالي: لماذا كُتِبَ هذا الموضوع؟، فان لم نعرف لماذا كُتِبَ، ولماذا طُرِحت هذه القضية في هذا الوقت بالذات، فان امامنا السؤال التالي: هذا الكلام يخدم من؟

الثقافة متهمة حتى تثبت براءتها

وهكذا ينبغي ان نفعل تجاه ما يُكتب او يذاع في الساحة، فالثقافة في منطقنا متهمة حتى تثبت براءتها، ونستوحي ذلك من حديث للرسول ﷺ يقول: «مَنْ أَصْعَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبْدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبْدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنْ إِبْلِيسَ فَقَدْ عَبْدَ إِبْلِيسَ». فلابد أن تُثبت لنفسك أنك قد عبدت الله إذا راجعت كلمة، أو تصفّحت

كتاباً، او طالعت جريدةً، او استمعت الى اذاعة.
واذا كانت الثقافة متَّهمة، فلا بد ان يُطرح السؤال هكذا: مَنْ المستفيد من نشر هذه الثقافة؟ وبأي دافع كُتبت هذه الافكار؟، وبالطبع ليس هناك احد يقول عن نفسه انه خاطيء، فكل الناس يميلون الى مدح انفسهم، ومن مدح نفسه فقد ذمها وإن صدق.

وعلى هذا فلنشطب على اكثر ما يُكتب في وسائل الإعلام من تسبيح بحمد الانظمة الجائرة، ذلك لان هذه الوسائل الإعلامية هي بالتالي أجهزة الانظمة، وان مدحها لهذه الانظمة هو في الحقيقة ذم لها. وعندما يطرح علينا كلام من قبل تلك الوسائل الاعلامية فلا بد ان نفتش في زواياها عن تبريراتهم لمواقفهم، مثلاً مواقف الانظمة تجاه اسرائيل والعالم الاستكباري، فهذه المواقف تنطوي على التخاذل، إذن فلا بد أن يبرروا خطأهم بطريقة او بأخرى.

إنّ الإعلاميين التابعين للأنظمة الحاكمة في البلدان العربية يضخمون دور اسرائيل، ويصنعون امام شعوبهم هالة كاذبة لها، ويخلقون اسطورة اسرائيل التي لا تُقهر، ولكنها في الواقع ليست كذلك، ولكن تخاذل الانظمة ازاءها هو الذي جعلها تدعي انها قوية، في حين ان الله تعالى يقول: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾^١.

فلوجود حالة التخاذل والإنهازمية عند هؤلاء فانهم يعمدون الى تبريرها بالإعلام المزيف، لانهم يخشون شعوبهم، فيكتفون الثقافة الباطلة بين شعوبهم كي لا ترى واقعهم، ولا تكتشف جريمتهم.

بعد هذه المقدمة نعود الان الى الحديث عن الثقافة، والإجابة عن الاسئلة التي اثرناها في مقدمة هذا الفصل:



كيف نكتشف الثقافة الباطلة؟

لقد أصبح الجواب واضحاً الى حد ما بعد هذه المقدمة، فالثقافة الباطلة نكتشفها عندما نطرح السؤال التالي: هذه الثقافة تخدم مَنْ؟ فإذا عرفنا الشخص او النظام الذي تخدمه هذه الثقافة فاننا نكون قد عرفنا حقيقة هذه الثقافة، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تفضح العوامل النفسية القابعة وراء الثقافات الباطلة.

بعد ذلك علينا أن نكتشف الحالة النفسية التي يعيشها المتكلم، فان كان يعيش حالة الجبن والتخاذل فان ثقافته ستكون منطبقة على هذه الحالة.

وعلينا ان نأخذ بنظر الاعتبار أن أهم جزء في الثقافة هو نهايتها ونتيجتها، فالثقافة التي تنتهي الى العمل الصالح هي ثقافة سليمة، أما الثقافة التي تدعوك الى التكاثر، فهي الثقافة الباطلة، ولذلك عليك ان تحلل الثقافة المطروحة عليك؛ فتتأمل الى ما وراءها، وتحاول ان تكتشف الى اي هدف تدعوك؛ هل تدعوك الى العمل أم الى اللامعمل، ثم هل تدعوك الى العمل الصالح أم الى غير الصالح؟

ومن هنا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال:

«لَا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ دَاعٍ مُدَّعٍ، يَدْعُوكُمْ مِنَ الْيَقِينِ إِلَى الشَّكِّ، وَمِنَ الْإِخْلَاصِ إِلَى الرِّيَاءِ، وَمِنَ التَّوَّاضُعِ إِلَى الْكِبَرِ، وَمِنَ النَّصِيحَةِ إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَمِنَ الزُّهْدِ إِلَى الرَّغْبَةِ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوَّاضُعِ مِنَ الْكِبَرِ، وَمِنَ الرِّيَاءِ إِلَى الْإِخْلَاصِ، وَمِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ، وَمِنَ الْعَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيحَةِ»^١.

وفي حديث آخر عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام قال:
 «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقَّ الْفَقِيهِ؟ مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي
 مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يَنْتَرْكِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»^١.

من هنا يجدر بنا ان نفتش عن من ينتهي كلامه بنا الى الرجاء
 والامل، والى العمل والتحرك والنشاط، وان نحذر ممن يؤدي كلامه بنا
 الى القعود واليأس.

ولنأخذ على سبيل المثال كتاب "تحطمت الطائرات عند الفجر" أو
 كتاب "وصايا حكماء صهيون" أو كتاب "لعبة الامم". إِنَّ هذه الكتب
 جميعها وكثيراً غيرها إنما وُضِعَتْ أساساً لكي تقول للمسلمين: إنكم لا
 تفهمون شيئاً، ولا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً، وإنَّ امور العالم كلها إنما
 هي بيد الغربيين، وأنهم هم الذين يحركون العالم.

مثل هذه الكتب تحدثنا عن ضخامة دور وكالة المخابرات الاميركية
 (سي. آي. أي)، وتصورها لنا وكأنها شياطين الجن الذين يفعلون ما
 يريدون، فهذه الكتب تريد ان تسلب منا ثقتنا بأنفسنا، ولذلك يجب
 علينا ان نطرحها جانباً، ولا ننخدع بها، ولا بد ان نعي ان قوتهم لا شيء،
 ازاء قوة الله وقدرته، فنحن نتمتع بقوة الله العظمى، وكلما رأينا شيئاً عجباً
 قلنا «الله اكبر، سبحان الله، لا إله إلا الله»، لكي لا نبهر بهذا الشيء
 العجب، ولكي لا يسلب ارادتنا.

إِنَّ القوى الطاغوتية في الارض إنما تستعرض قوتها من اجل إرهابك
 أيها الانسان، ومن اجل سلب إرادتك، لانها تخشى إرادتك، ولانها تعرف
 أَنَّ هذه الارادة لو تحركت فانها ستحرقهم، وتحرق قواهم.

أما بالنسبة الى جواب السؤال الثاني وهو:
ماذا يجب أن نفعله ازاء الثقافة الباطلة؟

فلا يكفي أن نعالج اي مرض بأي دواء، بل لكل مرض دواؤه الخاص به، ولكل ثقافة علاجها الخاص بها، وبناء على ذلك لابد أن نكتشف نوع المرض الثقافي الذي تعاني منه الامة لنحدّد نوع الدواء الذي يقتل (فيروس) هذا المرض.

ولذلك علينا ان نفتش في عمق الكلام وخلفياته، وان لا ننظر الى ظاهره بل الى ثناياه وخباياه.

كيف نرد الثقافة الباطلة

القرآن الكريم يؤكد على ذكر الافكار الفاسدة لاعدائه، فهو لا يكتفي بنفيها وردها دون ان يعرض لها، ونحن أيضاً يجب علينا ان نفتش عن الثقافة المريضة، فاذا اكتشفناها كافحناها بالمضاد المناسب لها، لكي يعرف الناس ماذا تعني الثقافة المريضة، ولكي تكون لديهم أمثلة حية عن هذه الثقافة التي يحذرون منها.

ان مجتمعنا يعاني الان من الامراض الثقافية اكثر مما يعاني من الامراض الجسدية، بسبب عدم اهتمامه بسلامته الروحية والنفسية والثقافية.

وبالطبع فان الهجمة الثقافية ضدنا قوية وعنيفة وبمختلف الوسائل من اذاعات، وصحف، وفصائيات، وافلام، وكتب، وشبكات الانترنت. واذا اردنا ان نقاوم هذه الهجمة الشرسة الشاملة فعلينا ان نشحذ ارادتنا، ونقاومها بوعي، بأن يصبح كل واحد منا شمساً مضيئة تبث النور والاشعاع والدفع في كل اتجاه، فعلى كل واحد منا ان يكون معطاء في كل ارجاء الحياة الثقافية للامة.

الفصل الرابع

لكي لا تكون ثقافتنا منسيّة

حينما نقرأ ثقافة اهل البيت عليه السلام ، ونعي أبعادها، ندرك أنها - بحق - ثقافة الرسالة التي تهدف انقاذ الانسان من الظلمات الى النور، ومن الجهل الى العلم، ومن التخلف الى الحضارة. لذا يجدر التعرف على قيمها السامية شعوراً بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا باعتبارنا رساليين. فالامر لا يقتصر على الانتساب للرسالة فحسب، بل ينبغي علينا ان نجتد انفسنا لنشر تعاليمها ومبادئها، وبث طريقتهما السمحاء.

فحريُّ بنا أن نعرف واجبنا تجاه اهل البيت عليه السلام، ونحيط بمسؤولياتنا نحوهم، فهي بحق المسؤولية الكبرى، والوظيفة العظمى امام المثقفين والمفكرين الاسلاميين، والدعاة الى الله تعالى.

مسؤوليتنا تجاه ثقافة أهل البيت

باعتقادنا إنّ ثقافة أهل البيت عليه السلام هي أرقى الثقافات الانسانية، لأنها منبعثة من صلب الرسالة؛ ولكن في نفس الوقت يجب الازعان الى الحقيقة المرة التالية، وهي: ان هذه الثقافة على الرغم من كونها اسمى الثقافات البشرية وأرقاها إلا انها اكثر الثقافات إختفاءً وكتماناً، وأبطأها سيراً وانتشاراً.



وهكذا ترتجح هذه الثقافة بين طرفي نقيض، بين الرفعة والضياع، وبين السمو والاندثار. فمن المسؤول - يا ترى - عن رفع هذا التناقض؟ وما هو الاسلوب الانجع لحل هذا المعضل؟ سيما وان البشرية بحاجة ماسة الى هذه الثقافة اليوم اشد من ذي قبل.

فاذا كانت الثقافة المتكاملة - روحياً ومادياً - غائبة عن المسرح السياسي، فان غيابها هذا يتسبب في حدوث الكثير من المشاكل في حياة الشعوب، اما لو قيض لهذه الثقافة المتمثلة في ثقافة اهل البيت عليهم السلام من ينشرها ويثبثها في أرجاء الشعوب، فانها من دون شك ستتسبب في سعادة البشرية.

فمن هو المسؤول عن حمل هذه الثقافة، واقناع الناس بها؟ الرساليون هم المسؤولون عن ذلك، من خلال تشخيص الداء ووصف الدواء؛ وأول ما ينبغي ان نعمله في هذا المجال هو أن نسعى لاكتشاف النقائص في المكتبة الاسلامية العربية - واقصد بالعربية هنا ما كتب باللغة العربية حول الاسلام -.

مثالب المكتبة الإسلامية العربية

وبصورة عامة هناك مثالب في هذه المكتبة، وقبل ان نبدأ بسردها ينبغي الالتفات الى نقطة مهمة، وهي ان المؤلفات التي كُتبت بلغة الامس لا يحيط بكنهها الجيل المعاصر سوى العلماء وطلاب العلوم الدينية، فهم بعد جهد جهيد استطاعوا التعرف على منطق العلماء السابقين، فحصرُوا جل اهتمامهم في تعلم لغتهم، وحل ما اغلق وعمي من عباراتهم، وعلى سبيل المثال فان لغة كتب "الشرائع" و"اللمعة" و"المكاسب" و"الرسائل" و"الكفاية" وسائر كتب الفقه والاصول

المتداولة في الحوزات العلمية لا يفهمها اديب اليوم، وانما يفهمها رجال الدين المختصون، لانهم يبذلون جهوداً جبارة في سبيل تعلم لغة الفقهاء المتقدمين، وقد نحيط نحن بهذه اللغة، ولكن يا ترى هل تستطيع المجتمعات الاخرى فهم هذه اللغة واستيعابها؟ بالطبع لا يتأتى لها ذلك.

ذكر لي صديق مختص بالقانون قد برع في هذا العلم حتى بلغ الذروة فيه ووصل الى مستوى المستشارية وهو مستوى يعادل درجة البروفسور في سائر فروع العلم، فقد قال لي يوماً انه حينما يريد الاطلاع على الفكر الاسلامي في مجال القانون من خلال امهات الكتب الاسلامية القديمة فانه يصاب بالعجز عن فهم محتواها ومعرفة عباراتها بسبب التعقيد في لغتها.

وهذا (السنهوري) الذي يعتبر اكبر مقنن عربي، ومن اساطين علم القانون المعاصرين، وواضع القوانين المدنية لعدد من الدول العربية كان يحاضر يوماً في كلية الحقوق بجامعة بغداد حول "العيب الخفي"، وزعم ان الاسلام لم يتعرض لهذا الموضوع قائلاً: بحثت كثيراً في الكتب الاسلامية فلم اعثر على كتاب اسلامي قانوني تناول هذا الموضوع الهام. فانبرى له احد الطلاب قائلاً: ايها الاستاذ؛ لقد تناول الاسلام هذا الموضوع.

فقال السنهوري: اني اتحداك في هذا، فأنا اجزم بعدم وجود كتاب اسلامي عالج هذا الموضوع. فأجابه الطالب: حسناً، سأثبت لك خلاف ما توصلت اليه، وسأتيك غداً بكتاب طرح هذا الموضوع.

وكان هذا الطالب الجامعي قد درس العلوم الدينية في النجف



الاشرف، وجاء الى بغداد لدراسة العلوم الحديثة في كلية الحقوق، وفي اليوم التالي جاء هذا الشاب بكتاب "المكاسب" للشيخ الأنصاري وقدمه الى الاستاذ، وكان ذلك الموضوع مطروحاً ضمن هامش كتبه شرحاً لهذا الكتاب العلامة اليزدي صاحب كتاب "العروة الوثقى".

فتح (السنهوري) الكتاب، وبدأ يقرأ هامشه باذلاً قصارى جهده وطاقته، فاكشف في طيات هذا الكتاب وفي أسطر هامشه علماً جماً، وكنزاً مخبوءاً، وفي المحاضرة التالية اذاع (السنهوري) ما اكتشفه، واسهب القول فيه، فعندما اعتلى منصة المحاضرة وجه كلامه الى الحاضرين قائلاً: إنَّ هذا الشاب علّمني علماً لم يعلمنيه أحد طوال حياتي - وأشار بيده الى الطالب الذي جاءه بالكتاب - وأضاف: لقد ثبت لي ان القانون الاسلامي تعرض لموضوع (العيب الخفي) وأوفى حق هذا الموضوع من جميع جوانبه، وتعتبر معالجته هذه انضج من كل ما كتب حول هذا الموضوع في القانون الفرنسي والروماني والروسي والبريطاني وغيرها، وليس ما في هذا الكتاب حول هذا الموضوع مجرد اشارة بل هو بحث شامل وناضج تناوله من جميع نواحيه، وهو يمثل الحق الصراح في موضوع (العيب الخفي)؛ ثم التفت الى الطالب الجامعي متسائلاً: لماذا طمرتم - انتم اصحاب هذه الكتب، ومالكو مفاتيح ما اغلق علينا فهمه - هذه الكتب في مطامير ومعتقلات، ولماذا اخفيتموها عنا؟ صحيح انكم قمتم بطباعتها، ولكن طباعتها هذه ليست بمتناول الجميع، نظراً لطباعتها القديمة.

الوسيط بين لغة القدماء ولغة العصر

ان هذه الحادثة تثبت لنا عظمة ثقافتنا من جهة، وانزوائها من جهة أخرى. ترى من المسؤول عن ذلك؟ ومن هو الذي ينبغي عليه ان يقوم

بدور الوسيط لكي يوضح لغة القدماء؟

فنحن بحاجة في عصرنا هذا الى منطق مبسّط وواضح، كما يقول تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾^١، أي الخطاب الواضح الذي يفصل الحق عن الباطل.

ونضرب هنا بالامثلة الألمانية مثلاً؛ فقد كانت هذه الامة قبل نهضتها متمزقة، متفرقة، تحكمها الصراعات، ويسودها التناحر، وكانت اراضيها مقسمة بين الدول التي تحيط بها كالامبراطورية النمساوية وروسيا القيصرية وفرنسا، وما تبقى منها كان عبارة عن سبع وعشرين ولاية متناحرة، يحارب بعضها بعضاً، وفي خضم هذا الوضع المتوتر ظهر رجل من بين اوساط هذه الامة فنفس فيها روح الاتحاد، فجمع شتاتها، وشعب صدعها، حتى اصبحت من اقوى الأمم الاوروبية واعظمها، ولم يكن هذا الرجل نبياً من الانبياء يمتلك معاجزهم، بل كان أعزل إلا من قلم خط به علوم من تقدمه بأسلوب واضح سلس يفهمه الصغير والكبير، فانتشرت كتبه في اوساط الشعب الالماني، واثرت فيه ايما تأثير، فحولتها من امة ضعيفة واهية الى امة قوية مقتدرة، وهذا الرجل هو "نيتشه".

من هنا ندرك ان مشكلتنا ليست في اصل الثقافة، وانما في اللغة التي يخاطب بها المجتمع؛ فهي لغة صعبة لا يفهمها الجميع.

كتابة التاريخ الرسالي بلغة العصر

وقبل ان نفصل الحديث في هذا الموضوع، نسأل انفسنا: مَنْ مِنَّا قرأ كتاباً يتحدث عن التاريخ الرسالي بلغة عصرية مجرداً من الدس



والتحريف، ويمكن الاعتماد عليه؟ من الطبيعي أن يكون الجواب: إنَّ القليل من كتب التاريخ تحمل هذه الميزة، فَمَنْ كتب في هذا المضممار كانت تدفع أغلبهم دوافع طائفية وعنصرية مختلفة حَرَّف على ضوءها التاريخ الرسالي. ترى لماذا لم يرأب هذا الصدع؟ لقد دخلت المطابع البلدان الاسلامية قبل حلول القرن العشرين، فقد دخلت المطابع العراق سنة (١٩٠٥) وفي بيروت سنة (١٨٦١)، وفي مصر قبل ذلك، فلماذا لم نستخدم هذه المطابع في تسجيل تاريخنا، وهل يمكن لأمة من الأمم أن تتقدم وهي منسلخة عن تاريخها؟ لا يمكنها ذلك بالطبع، فلا توجد امة تطورت دون ان تركز الى تاريخها.

واذا ما تصفحنا التاريخ الاسلامي والعالمي لرأينا انه يجانب وجهة النظر الرسالية، ويفترق عن نظرة اهل البيت عليهم السلام الى التاريخ، فلقد كُتِب التاريخ برؤية قاصرة من قبل اشخاص ذوي آراء شاذة مثل (كارل ماركس)، ومن هؤلاء أيضاً (جورج فيشر) الذي كتب التاريخ بنظرة رجعية، و(جورج حنا) الرجل الساخط على الدين وقيم السماء، فقد طغت على كتاباته روح التمرد على الدين. وفي مقابل ذلك نرى ان ذوي الاقلام النزيهة لم يقدموا على كتابة التاريخ الاسلامي والعالمي، فترك سكوتهم هذا فراغاً ملاءه اولئك الكتاب المنحرفون، في حين ان القرآن الكريم أمرنا بتسجيل مفاهيمنا من خلال وقائع التاريخ، فهو شاهد على صدقها، فقد بين لنا القرآن تأريخ الأمم السالفة، ومن ثم أمرنا ان نسير في الارض ونتمعن في تأريخ تلك الأمم في قوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾^١.

ثقافة أصيلة واسلوب معاصر

نحن بحاجة اليوم الى تقديم ثقافتنا بأسلوب عصري، وبمنهجية جديدة، وذلك في مجال تفسير القرآن والتشريع الاسلامي والاخلاق.. كطريقة سلوك الانسان في هذا العصر، فمكتبتنا تفتقر اليوم الى كتاب يتناول سلوك الانسان المؤمن والشخصية الاسلامية، ولم يكتب أحد حول هذا الموضوع سوى القليل جداً، في حين أن العلماء المتقدمين ألفوا كتباً قيّمة حول سلوك الانسان المؤمن مثل "مكارم الاخلاق" و"آداب المتعلمين" و"منية المريد" ولكن أحداً من كُتّابنا المعاصرين لم يشمّر عن ساعد الجد لكي يصوغ عبارات تلك الكتب القيّمة بأدب حديث، واسلوب سهل.

فنحن - اذن - نحتاج الى اقلام عصرية، لكي نكتب ثقافتنا بها، ونقدمها للمجتمع بصورة جذابة.

ولا شك إنّ هناك جهوداً مشكورة بُذلت في هذا المضمار، وظهرت كتابات ناضجة حول رأي الاسلام في النظم المختلفة كالاقتصاد والاجتماع والسياسة والترفيه وغيرها، إلا أنّ هذه الجهود كانت مجرد محاولات متواضعة اذا ما قيسَت بآلاف الكتب المضلّلة التي تُنشر من قبل المطابع المختلفة ليل نهار، فقد اصدّرت هذه المطابع كتباً تنفث سموماً قاتلة، فعملت على تأخير المسلمين، وسعت أن تقف سداً حائلاً أمام التيار الاسلامي.

لا ريب، ان هذا الواقع يدفعنا الى اظهار حقائق الثقافة الرسالية، بكل الاساليب العصرية الممكنة، لاجل انقاذ الانسان - اين ما كان - من الضلالة.



ولا يخفى ان هذا الامر ليس بالسهل اليسير، وليس هو من مسؤولية فرد دون آخر من ابناء الامة، بل لابد ان يتحمل الجميع هذه المسؤولية الكبيرة، كل حسب قدرته واستطاعته؛ آنذاك يهون الأمر، وتثمر نتائجه. حينها - لا شك - ستنعم البشرية بالسعادة العظمى.

الفصل الخامس

الثقافة الجاهلية قاعدة الحركات الانتقائية

من المعلوم إنَّ الجاهل إمَّا أن يكون مفرطاً أو مفرطاً، ولذلك فإنَّ الجهل بالاسلام وجوهر رسالات السماء جعل الناس ينقسمون الى فريقين؛ فريق إتخذ الاسلام قشوراً لا محتوى فيها، وشعائر مفرغة من القيم، وفريق ضل عن الاسلام الحقيقي، واستبدل به افكاراً غريبة إلتقطت من هنا وهناك.

وفي هذا الحديث سنحاول التركيز على الفريق الثاني؛ أولئك الذين لا يقل عددهم اليوم في عالمنا الاسلامي عن الفريق الاول وخصوصاً بين الطبقات المثقفة التي زعمت أنَّ باستطاعتها أن تصنع إسلاماً من وحي ظروفها، وحسب آرائها وافكارها.

المنحرفون عن الاسلام

وفي طليعة هؤلاء المثقفين وجدنا في العالم العربي مَنْ زعم أنَّ الاسلام إنما هو رسالة العرب، وانعكاس للوضع الاجتماعي والحضاري لهؤلاء القوم، فأراد بذلك أن يصنع مزيجاً من الاسلام ورسالته المقدسة، ومن فكرة القومية والافكار التي تعلمها من المفكرين الأجانب، فصاغ بذلك ايديولوجية (البعث) التي عانت منها امتنا الاسلامية حتى اليوم

الشيء الكثير.

وهكذا في الهند وباكستان والسودان ومصر وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية ظهر بعض المثقفين الذين زعموا أنَّ باستطاعتهم فهم الإسلام بمراجعة بسيطة للقرآن الكريم، وقراءة سطحية لنهج البلاغة، ومطالعة ساذجة لبعض الكتب الإسلامية.

وهكذا فإنَّ معرفة الإسلام أصيبت بتضخم غريب، فأخذ كل إنسان يدَّعي معرفته بالإسلام الحقيقي إلى درجة أنَّ الحكام الطغاة أصبحوا أصحاب فتاوى في الإسلام، وهذه من ابتلاءات أمتنا.

لماذا الانحراف في فهم الإسلام؟

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: لماذا إنحرف أولئك المثقفون في فهم الإسلام؟

فيما يلي سنحاول توضيح بعض النقاط في هذا المجال:

١- إنَّ أية منظمة أو حزب أو تجمع إنما هو قناة لاستيعاب تيار ثقافي وسياسي يجري في المجتمع ولا يمكنه أن يخلق ظاهرة جديدة، بل إنَّ قصارى ما يمكن أن تفعله المنظمات أو الأحزاب هو استيعاب بعض التيارات القائمة في المجتمع الذي تبرز فيه.

إن هذا التيار يمثل مجموعة من الذين تشبعوا بالثقافة الغربية، وأرادوا أن يفسروا الإسلام القائم على محور الإيمان بالغيب، والإيمان بارادة الإنسان المستلهم من ارادة الله تعالى، على اساس تلك النظريات والافكار الغربية لسبيين:

الأول: إنَّ هؤلاء ضعفاء الرؤية بالنسبة إلى دينهم، فلم يقرأوا القرآن، ولم يفهموا شيئاً من الإسلام، وهنا حشد الاستعمار نفسه ووضع برامج

ذكية تهدف الى فصل الانسان المسلم عن ثقافته بشتى الاساليب. وعلى سبيل المثال فان المناهج السائدة في وزارات التربية والتعليم، وفي وزارات التعليم العالي، والاعلام، ووزارات الثقافة والشباب، تهدف كلها الى تحقيق غاية واحدة هي فصل الانسان المسلم عن ينابيع ثقافته، عن القرآن وتفسيره الصحيح، وعن التاريخ الصحيح، وعن الرؤية السليمة الى الدين عموماً، والاسلام بصورة خاصة.

ومن هنا برزت تلك الطبقة التي تربت في احضان الاستعمار بشكل غير مباشر، وتلقت ثقافة المستعمرين، ولم تتجاوز في معرفتها لديها حدود الكلمات التي قالها مدرسو الدين في المدارس الحكومية.

الثاني: إنَّ هؤلاء لم يروا أمامهم الا اسلاماً قشرياً لا يتفاعل مع حوادث العصر، ولا يعطي رؤية حول متغيرات الزمان، ولا يهدف الى اقامة العدل، وتحقيق الحرية، وعندما رأوا هذا الاسلام عند البعض استنتجوا ان الدين كل الدين هو ما في اذهان هؤلاء، ولذلك فقد وضعوا انفسهم بين سندان القشرية ومطرقة العمالة الفكرية، فصنعوا على عجل اسلاماً متناقضاً.

فقدان القاعدة يسبب الانحراف

٢- إن أئمة منظمة أو حركة أو حزب يدخل في ساحة اجتماعية لا بد أن يبحث عن قاعدة يتكئ عليها، ومن دون هذا البحث، ومن دون التحليل العميق لاولئك الذين يريدون ان ينتموا الى هذه المنظمة او الحزب، ستصاب المنظمة او الحزب بانحرافات كبيرة، فعندما يتسم جزء من جسم الانسان ولا يسعى من اجل تحصين جسمه من التسمم، فان السم سوف يتصاعد ويتصاعد حتى يبلغ دماغه، وكذلك الحال

بالنسبة الى المنظمات والحركات، فعندما لا تمتلك الرؤية الاسلامية الرصينة، ولا تتمتع بالقنوات النزيهة التي تختار عبرها العناصر التي تريد الانتماء اليها فانها ستعرض الى تسلل مجموعة من المنحرفين حتى الى عناصر القيادة.

ضرورة وجود القائد الديني

٣- ان مثل هذه الحركات لا بد أن تنحرف، فان لم تنحرف ايدولوجياً، فلا بد ان تصاب بانحرافات اخرى من مثل الانحرافات الاخلاقية والسياسية، وذلك بسبب عدم وجود من يحول دون وقوع هذه الانحرافات فيها، فاذا كانت هذه المنظمة او الحركة تمتلك رجلاً واحداً عارفاً بالاسلام معرفة كاملة وعميقة، ومحيطاً بجوهر هذا الدين من خلال الاستنباط والاجتهاد، لما تعرضت الى تلك الانحرافات، ولما نظرت الى الاسلام هذه النظرة المنحرفة المغلوطة.

ان وجود مثل هذا الرجل يشبه وجود الامام في عصره، وقد أمرنا الائمة عليهم السلام ان نعود اليه ولا يهم ما اذا كان هذا الرجل المتكامل الشخصية معروفاً أم مجهولاً، لان وجوده ضروري شريطة ان يكون متّصفاً بما يلي:

١- فهم الاسلام فهماً عميقاً من خلال درك جوهر هذا الدين الحنيف، وقيمه، وتأريخه، وكتابه، وسنته.

٢- ان يكون منتمياً الى أوساط الجماهير، لأن الانتماء الجماهيري يحصن الحركة من الانحراف، أما الاشخاص الذين يعتزلون الجماهير ويعتقدون ان الجماهير لا تفهم شيئاً، ويحاولون ان يتسلطوا عليها فانهم سوف يتعرضون الى الانحراف.

ان الحركة الناجحة هي تلك التي تنبع من الجماهير، وتتخذ من هذه

الجماهير قاعدة لها، وفي الحقيقة فإن هذا هو ما فعله الانبياء عليهم السلام في حركاتهم من أجل تحقيق الاهداف الالهية، فهم إنما بُعثوا إلى الناس لأن وجودهم مع الانسان القيادي ضمان لعدم انحرافه، لانهم يكونون اوصياء عليه كما يكون وصياً عليهم، فهم يتواصلون مع بعضهم لمعرفة الطريق القويم.

المادية سبب انحرافنا

وهكذا فإن الانحراف في بلادنا موجود وقائم، ويتمثل هذا الانحراف في ابتعادنا عن الاسلام من جهة، وتشبعنا بالثقافة الغربية. هذه الثقافة الدائرة على محور المادية العمياء من جهة اخرى.

ان هذه المادية تتجسد في انكار الله تعالى، وتكذيب رسالاته، وارادة الانسان وقدرته، وللأسف فإن الظروف المواتية لهذا الانحراف موجودة في بلادنا بسبب الجهود المتواصلة التي يبذلها الغرب والشرق في بلادنا من أجل زعزعة عقيدتنا وإضعاف ايماننا بالاسلام والرسالات الالهية. وهذه الجذور تتحول مرة الى حزب البعث، ومرة الى الاتحاد الوطني الاشتراكي، واخرى الى منظمة مجاهدي خلق الماركسية الملبسة بثوب الاسلام، واخرى أيضاً الى المذهب القادياني او المذهب البهائي، ومختلف الاحزاب التي تحاول ان تخلق نظريات زائفة وملفقة من الاسلام، ومن الافكار الغربية عنه.

ولكي لا تتكرر فينا هذه التجارب المنحرفة، ولا تذهب دماؤنا وتضحياتنا هدرًا، فإن علينا ان نقضي على تلك الجذور الفاسدة، ونظهر بلداننا من حالة انعدام الوعي الصحيح والسليم بالاسلام، لننشر في مقابل ذلك الوعي الصحيح بالاسلام، لا ان نروج للوعي القشري الذي

يصنع ارضية الانحراف عن المبادئ الاسلامية الاصيلية، ولا ذلك الوعي اللقيط الذي يبتعد عن روح الاسلام، وعن قيمه الإلهية. وبذلك وحده نستطيع ان نضمن لبلادنا العودة السليمة الى الاسلام الصحيح في صفائه ونقاؤه باذن الله تعالى.

الباب الثالث
ثقافة الحياة

الفصل الأول

ثقافة الحياة؛ خصائصها وأسسها

في هذا الفصل نتحدث عن الثقافة التي اسميناها بـ "ثقافة الحياة"، ومن أبرز ميزاتها أنها ثقافة العمل والعطاء والتضحية، في حين أن "ثقافة الموت" هي ثقافة الخمول والكسل والانانية، ثقافة الأخذ دون العطاء، وبالتالي هي ثقافة الاعتداء على حقوق الآخرين.

ثقافة الحياة.. ثقافة البذل والعطاء

وثقافة الحياة هي كل ثقافة تدفعك نحو العطاء والتضحية والعمل، وتعلمك مكارم الاخلاق، وفي المقابل فان ثقافة الموت هي التي تدفعك نحو التمحور حول الذات، والتفكير في نفسك دون الآخرين. وفي الحقيقة فان الذين يتعودون على الأخذ، وينصبُّ تفكيرهم على جعل الآخرين يحترمونهم اكثر، وعلى كيفية الاشتهار في الساحة، هؤلاء سوف يبلغون درجة من الانانية بحيث لا ينفع معهم نصح ولا وعظ وارشاد.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله قد عود الناس من حوله على ثقافة العمل والعطاء، ولذلك كانوا يتحلقون حوله ﷺ وحينما يستمعون اليه وهو يحدثهم عن فضيلة او عملٍ صالح كانوا ينبثون من حوله



في الفور، وعندما كانوا يُسألون عن سبب تفرقهم اثر استماعهم الى توجيهات النبي ﷺ كانوا يقولون: لكي ننفذ ما قال.

وكانت الآية الكريمة حينما تنزل على النبي ﷺ يطلقها في الساحة فتكون بمثابة الصاعق الذي يفجر طاقات الامة، ويحرك ضميرها، وكأن كلماته بلاغ عسكري، هكذا كان حال المسلمين الاوائل، كانوا يهتمون بالآيات القرآنية، وعلى سبيل المثال حينما نزلت آية حرمة الخمر، فاضت طرقات المدينة بالخمرة، فكان كل واحد منهم يأتي بخمخته ليهرقها في الشارع.

بهذا الاسلوب كان المسلمون يطبقون تعاليم الاسلام، ومضامين الآيات القرآنية، ولذلك جاء في القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝١﴾.

﴿وَفَرَّغْنَا فَرَقْنَاهُ لِقُرْأِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝٢﴾.

وترتيل الآيات القرآنية كان هدفه تثبيت هذه الآيات في قلوب المسلمين، وتكريس مضامينها، وتحويلها الى ادوات عمل.

هذه هي سمات ثقافة الحياة، في حين أن ثقافة الموت تجعل الثقافة هدفاً بحد ذاته، فتسلب من الانسان القدرة على العطاء، وتجعله مصداقاً لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ»^٣. وهكذا تنتهي هذه الثقافة بالانسان الى ان يكون انانياً ذاتياً، يتاجر بعلمه.

كيف نميز بين ثقافة الحياة وثقافة الموت؟

وهنا يتبادر الى الاذهان السؤال المهم التالي: كيف يمكن ان يميز

١- سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

٢- سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

٣- عيون الحكيم والمواعظ، ص ٣٤٠.

الانسان بين تينك الثقافتين؟
الاجابة على هذا السؤال تأتي من خلال الأخذ بنظر الاعتبار أمرين
مهمين:

الاول: ينبغي ان يكون الهدف من الاهتداء الى الثقافة عبر العلم
والدراسة واضحاً، فقبل كل عمل، وخصوصاً التعلم لابد أن يحدّد الانسان
هدفه، حتى قبل ان يقرأ كتاباً واحداً، او يكتب سطرأ واحداً، وقبل أن
يدخل قاعة الدرس، لابد وان يجعل نصب عينيه ان الذين استهدفوا من
 وراء العلم الحصول على مغنم ومكاسب مادية لم يفلحوا، وان الذين
 اتخذوا من البدء العلم وسيلة للكمال الروحي، والتقرب الى الله تعالى
 فانهم هم الذين هداهم الله للعلم النافع، ووقفهم للعمل الصالح، وجعل
 عاقبتهم خيراً.

ويكتسب هذا الموضوع اهميته من ان فساد العالم هو بمثابة فساد
العالم. فعن رسول الله ﷺ قال: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتِ
 أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ: الْفُقَهَاءُ
 وَالْأُمَرَاءُ». وعلى هذا فان من الضروري جداً ان يطرح طالب الثقافة
 على نفسه السؤال التالي: ما هو هدفي من طلب الثقافة؟ فيلور بذلك
 هدفه، ويحدده بوضوح.

القرآن دواء جميع امراضنا

الثاني: في القرآن نجد الحل لكل المشاكل التي نعيشها، فنحن
 بشر وأفكارنا تتقوّل حسب المحيط الذي نعيش فيه، وكثيراً ما يكون
 المحيط الاجتماعي الذي نعيش فيه فاسداً، فلنسأل أنفسنا:
 هل هذا العدد الهائل من الكتب والصحف والمجلات والمؤسسات



الاعلامية وشبكات الانترنت، صالح ام فاسد؟
 الموجهون الاجتماعيون صالحون ام فاسدون؟
 القصص التي غدينا بها منذ الطفولة هل كانت كلها قصصاً صحيحة،
 وهل أوحى الينا بأفكار سليمة؟
 إذن نحن نعيش في بيئة تتماوج بأفكار مختلفة بعضها صحيح
 والآخر سقيم.

والسؤال المهم هنا هو: كيف نحصن انفسنا من الافكار الضارة؟
 الجواب نجده في القرآن الكريم، ولكن مشكلة الانسان المسلم انه
 يتعامل مع القرآن كما يتعامل مع اي كتاب آخر، في حين ان النبي ﷺ
 يقول: «فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»^١.

فلنعد الى القرآن الكريم

ونحن نتساءل: أليس من الجفاء أن لا نقرأ القرآن، وإذا قرأناه لا
 نحاول أن نفهمه ونتدبر آياته؟ أليس من الجفاء أن يدعونا الخالق تعالى
 الى تدبر القرآن ثم لا نستجيب لدعوته؟

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^٢.

بماذا نجيب الباري عز وجل عندما يحتج النبي ﷺ علينا قائلاً:
 ﴿يَرْبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^٣، فلنحذر من ان نجعل
 القرآن خصمنا يوم القيامة أمام الله تعالى.

إن التدبر في القرآن يمثل بالنسبة الى المثقف أكثر من ضرورة
 وأكثر من مجرد واجب، لأن ضلالة الانسان المثقف أشد وأكثر

١- جامع الأخبار، ص ٤٠.

٢- سورة محمد، الآية: ٢٤.

٣- سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

تأثيراً من ضلالة الانسان العادي، لأنَّ ضلالة الاول ستؤدي الى ضلال الآخرين.

دور القرآن في تكوين ثقافة الانسان المؤمن

إنَّ القرآن يعتبر بالنسبة اليينا منظراً للرؤية الصائبة، ومنهاجاً للتفكير السليم، فهو ليس مجرد معلومات بل هو منهاج قبل كل شيء، فالقرآن يؤدي الدور الاكبر في تكوين ثقافة الانسان المؤمن، ويمكننا أن نوضح هذا الدور في ثلاث نقاط على سبيل المثال لا الحصر:

١- إنَّ القرآن الكريم يمثل أداة لرؤيتنا، فعلياً أن ننظر الى العالم من خلال هذا الكتاب، وهذا أحد معاني كلمة (البصائر). فالقرآن يحدد لك كيف تنظر الى الطبيعة على سبيل المثال، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^١.

فعندما ننظر الى الطبيعة لابد ان ننظر اليها عبر هذا الاطار الفكري، فالكون هو آية الله، وتجلُّ لأسمائه الحسنی، ونحن عندما ندرس الثقافات المختلفة يجب ان نجعل من القرآن اطاراً لدراساتنا هذه.

٢- لقد بين القرآن كثيراً من السنن والقوانين الالهية في الكون، ونحن نقرأ القرآن لكي نفهم هذه السنن، وبالتالي لكي نفهم الحياة بعمق.

٣- إنَّ القرآن الكريم يصنع شخصية الانسان، فنحن حينما ننظر الى الطبيعة فانها لا تستفزنا، ولا تدعونا الى أن نغترَّ بها، ولذلك فان تقييمنا لهذه الطبيعة، وللظواهر الاجتماعية، والمجتمع إنما هو تقييم

١- سورة آل عمران، الآية: ١٩١.



عادل، لأنَّ القرآن هو الذي علمنا هذه العدالة:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^١.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^٢.
وعلى هذا فان القرآن هو منظار للرؤية، وسنة للحياة، وبالتالي اصلاح
للانسان لكي تكون رؤيته وثقافته في الحياة صائبتين.

١- سورة الأسراء، الآية: ٣٦.

٢- سورة الزمر، الآية: ١٨.

الفصل الثاني

بين ثقافة الحياة وثقافة الموت

كما إنَّ قانون الموت والحياة يسري على المظاهر المختلفة في الحياة والكون، فانه يسري أيضاً على الثقافة، فهي الاخرى من الممكن أن تكون حية، ومن الممكن أن تكون ميتة، فثقافة الحياة هي التي تتفاعل مع سائر اجزاء الحياة، في حين أنَّ ثقافة الموت هي التي تعيش في عزلة من هذه الحياة.

ثقافة الحياة

فثقافة الحياة هي التي تتحول الى سلاح بيدك تتحدى به الاعداء، وتقهر به مَنْ يريد سلب استقلالك، بينما ثقافة الموت هي التي تجعلك تابعاً للآخرين، وتفقدك إستقلالك وإرادتك وحيويتك، فليس كل ما يدخل ذهن الانسان، وكل ما يسطر في الكتب علماً، بل قد يكون كل ذلك جهلاً رغم ظاهره العلمي، ولذلك ينبغي على الانسان أن يضع تحت تصرفه مقياساً دقيقاً لمعرفة ما يجب أن يستوعبه، وما يجب أن يرفضه.

ولقد قرأت تقريراً يقول: إنَّ في جهاز المخابرات الاميركية قسماً خاصاً هدفه فرض الثقافة الاميريكية على العالم وعلى الشعوب النامية



بالذات، ولخطورة وأهمية هذه المؤسسة فانها تتصل مباشرة بالامن القومي في الولايات المتحدة، وتمثل مسؤوليتها في بث الافكار الجهنمية على نطاق واسع من العالم من خلال أجهزة الفيديو، والافلام السينمائية، والاذاعات المختلفة والصحف، والقنوات الفضائية، وشبكات الإنترنت. والثقافة التي تبثها هذه الأجهزة هي ما نعيه بثقافة الموت، وثقافة التبعية والتبرير.

فهذه الثقافة تقول للانسان في البلدان النامية: لا تحرك ساكناً حتى نأتي ونستعمرك، ومثل هذه الثقافة هي الثقافة المتخلفة التي تكرس تخلف الامة، وتبعدها عن السياسة، وتحاول ان تفصل بين الدين والسياسة، في حين ان الثقافة الحية هي الثقافة المرتبطة بكل مجالات الحياة، وهي نوع من الصراع مع الجاهلية، والمحاربة للكفر والاحاد، فهي ترى أن كل شيء من هذا النوع هو سياسة، وعلينا المشاركة في صياغتها.

حقيقة الثقافة القرآنية

ان الثقافة المتخلفة هي ثقافة الموت والتخدير، وفي مقابل هذه الثقافة تقف الثقافة القرآنية التي تأمرك بأن تزيد من معلوماتك، وتكتسب ثقافة واسعة متنوعة من خلال السير في الارض: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^١، وقد اطلق الخالق تعالى نداء هذا قبل أربعة عشر قرناً حيث لم تكن وسائل النقل والاتصالات المتطورة، وحيث كان الناس يستخدمون الدواب في عملية

الانتقال والسير في الأرض، فما أولانا بأن نطبق مضمون هذه الآية ونحن نعيش هذا العصر الحافل بالصناعة المتطورة.

فاذا اردت ان تكتسب الثقافة فان هذا لا يعني ان تجلس في غرفة مغلقة، وتضع امامك مجموعة كتب لتدرسها، بل عليك ان تسير في الارض، وان تتفاعل مع الحياة، وحينئذ يهديك الله السبيل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^١.

وهذه الآية وعشرات الآيات الاخرى تؤكد على أَنَّ الانسان إنما يهتدي بالعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، ومقاومة الطغاة، وبعبارة اخرى بالتزوّد بثقافة الحياة والاستقلال لا ثقافة التبعية، وبثقافة الحرية لا ثقافة الخنوع والخضوع والاستسلام للجاهليين.

وتنتشر في العالم - اليوم - أجهزة عديدة تبث ثقافة الدمار والتبعية والذلة، وبالأخص في الشعوب المتخلفة لكي تعيش المزيد من التبعية والذلة بسبب وقوعها تحت تأثير تلك الاجهزة الاعلامية.

السبيل الى مواجهة ثقافة الموت

وفي مقابل كل تلك الثقافات والاجهزة الدعائية لها لابد ان تكون هناك مؤسسات اخرى يكون هدفها نشر الثقافة الصحيحة التي نحن احوج ما نكون اليها، والتي نستطيع من خلالها مواجهة تلك الافكار، فنتحدث بالسياسة والاقتصاد والاجتماع بما اراد الله تعالى؛ فعلينا ان نوحّد هذه المؤسسات وحينئذ سنرى كيف ان الثقافات الاخرى تستهاوى وتزول.

ومن الطبيعي اننا لا نستطيع ان نحمل الثقافة القرآنية ونستوعبها



إلا عندما نعرف نقاط الضعف في الثقافات الأخرى، وعلينا ان نحدد الامراض التي تعاني منها هذه الثقافات لانها ثقافات مريضة، ولانها تتبع اساليب خفية وماكرة في نقل الأمراض إلى الآخرين.

فلا بد لنا - إذن - من أن نعرف أساس وركائز الاعلام الغربي ضد بلادنا، وان نحيط علماً بأنها تتحدث إنطلاقاً من مخطط خبيث جهنمي، فحتى الكلمات يختارونها اختياراً دقيقاً، واذا نحن لم نعرف كيف يخططون فلا نستطيع مقاومتهم، بل من الممكن ان نصبح اداة لهم، فالكثير من المسلمين ييثون - من حيث لا يشعرون - ثقافة الغرب المعادية، بل ويتبنونها، ويعتقدون أنها ثقافة سلمية.

ولذلك نؤكد أننا إن لم نعرف طبيعة الثقافة الجاهلية، والمهاوي الموجودة فيها فاننا سوف نعجز عن مكافحة هذه الثقافة بل وسوف نقع في شراكها، ولذلك على علمائنا و مثقفينا ومفكرينا وطلبة العلوم الدينية ان يستوعبوا آيات القرآن الكريم، والروايات الشريفة والادعية المأثورة، لانها تمثل اساس واطار ثقافتنا، كما ينبغي علينا في نفس الوقت ان نبحت في الثقافات الغربية، لنحدد امراضها ثم لنقاومها، لكي يكون بمقدورنا تزويد الناس بالثقافة الاصيلية، الثقافة التي تدعو الانسان الى العمل والسعي والنشاط، ومقاومة الظالمين.

هذه هي ثقافة القرآن الكريم، الثقافة التي تحت الشعوب على النهوض، وتمنحها الثقة بأنفسها، والثقة بالتغلب على القوى الجاهلية، ومن خلال التسليح بهذه الثقافة نستطيع التعرف على ما يجري حولنا، وتشخيص امراض الثقافة وما يقابلها من الافكار السليمة، لكي يكون بمقدورنا حمل رسالة الاسلام والعلم الى هذا العالم.

الفصل الثالث

بين ثقافة الحياة وثقافة الجمود

ثقافة الانسان إفراز وانعكاس عن أمرين متناقضين؛ فهي من جهة تعكس الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للانسان، ومن جهة اخرى تعبر عن الواقع القيمي والمعنوي والعقلي للبشر. وكما ان الانسان يخضع في حياته لمؤثرات الطبيعة والاقتصاد وعوامل البيئة، والظروف السياسية، والاوزاع الاجتماعية، فان ثقافته تخضع هي الأخرى لتلك المؤثرات والعوامل.

والثقافة التي تعكس الواقع المعنوي للبشر، والمنطلقة من قواعد العقل، ومناهج البصيرة، ووحى الرسالة، لا تتغير عبر العصور. فهي دين الله الذي انزل على أبي البشر وأول الانبياء، وهي دين الله الذي اختاره للبشرية، وهي - بالتالي - الاسلام الذي انزل على كل الانبياء والرسول، ولكل البشر عبر جميع العصور. فهي فطرة الانسان وعقله وضميره ووجدانه الذي لا يتغير.

اما الثقافة التي تعكس الواقع المادي للبشر، وتعبر عن اقتصاده واجتماعه وسياسته، فانها تتغير حسب الظروف. فليست سواء الثقافة التي هي افراز لواقع القطاع والرأسمالية او الاشتراكية في الاقتصاد، كما ليست سواء تلك الثقافة التي هي افراز عن واقع الدكتاتورية او



الحرية في عالم السياسة، وكذلك ليست الثقافة التي تعكس الوضع الحضاري للانسان عن تلك التي تعكس الوضع المتخلف والجامد للبشر.

ثقافة التحضر وثقافة الانحطاط

ونحن لو نظرنا الى ثقافة العرب قبل الاسلام، وقارناها مع ثقافتهم بعد مجيء الاسلام وانتشارهم في آفاق الارض، وبنائهم تلك الحضارة التليدة.. لوجدنا انهما كانتا مختلفتين تمام الاختلاف من حيث المضمون والمحتوى، ومن حيث الاطار والاسلوب ايضاً.

وهكذا الحال بالنسبة الى ثقافة الانسان الاوروبي قبل سبعة قرون فانها تختلف اختلافاً واسعاً وكبيراً عن ثقافته قبل قرنين، وعن ثقافته الآن.

ونفس الحكم يمكن ان نصدره على ثقافة الامة الاسلامية قبل ثمانية قرون، فانها تتباين عن ثقافتها قبل سبعة قرون (اي قبل وبعد الاجتياح التتري والمغولي للبلاد الاسلامية)؛ فالثقافة الاولى كانت ثقافة الحيوية والانطلاق، ثقافة الابداع والبناء، ثقافة التعاون والتلاحم، والعمل والاجتهاد.. بينما الثقافة الثانية كانت ثقافة الارهاق، والتعاس، والتدابر، وبالتالي فانها اصبحت تعكس واقعهم.

والثقافة تؤثر في الفرد تأثيراً بالغاً حيث تضفي عليه صبغة معينة؛ فالانسان النشيط الذي يندفع في كل مجالات الحياة بحوية بالغة تكون له صبغته التي تؤثر في حركاته وسكناته وملامحه التي تميزه عن ذلك الانسان المتخدر النائم.

التفسير حسب نوع الثقافة

ونحن عندما نستخدم مصطلح (الثقافة) فاننا لا نقصد الكلمات والتعابير، لأنها قد تكون واحدة او متشابهة. بل نقصد مفهوماً آخر هو نوعية تلقي الانسان للافكار، وكيفية تفسيره للاحداث. فالفكرة الواحدة تعني عند انسان شيئاً، بينما تعني عند انسان آخر شيئاً مغايراً. وعلى سبيل المثال فان المثل المعروف: "إتق شر من أحسنت إليه" يُفسّر تفسيرين: التفسير الاول يقول إنّ على الانسان أن يتقي شر الآخرين من خلال الاحسان اليهم؛ اي انك كلما احسنت الى الآخرين اكثر كلما تجنبت اذاهم، وابتعدت عن شرهم، وضمنت السلامة لنفسك منهم. أما التفسير الثاني فيقول: انك إذا احسنت الى انسان فان هذا الذي احسنت اليه سوف ينقلب الى عدو يفترسك، ويحطمك، فاتق شره بأن لا تحسن إليه!.

وهكذا الحال بالنسبة الى تفسير الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^١، والتي يظهر تفسيرها من قوله تعالى في صدرها: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^٢؛ اي انكم اذا انفقتم في سبيل الله وأعطيتهم، فحينئذ سوف تتجنبون الهلاك. أما التفسير الآخر فيقول: إنّ على الانسان ان يجلس في بيته، ويتجنب الاخطار، لأنّ الواجب عليه أن يحفظ نفسه ولا يلقي بها في الهلكة، فلا يجاهد، ولا يقول كلمة الحق عند امام جائر، ولا يحارب احداً لان الدخول في الحرب يعني القاء النفس في التهلكة، كما أنّ اقتحام ميدان العمل السياسي والعمل الاجتماعي والاصلاحي يُعدّ عند هؤلاء تعريض النفس للاخطار.

١ - سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

٢ - سورة البقرة، الآية: ١٩٥.



وهكذا تختلف التفسيرات في حين أنّ الكلمة واحدة، ذلك لان تلقي الانسان للكلمة يختلف عن تلقي الآخر؛ فبينما يتلقى حامل الثقافة الحيوية الرسالية كلمة (اتق شر من احسنت اليه) بمضمونها الحضاري؛ أي إعط من نفسك، وتنازل عن حقوقك من أجل الآخرين، وعش من أجلهم، نرى صاحب الثقافة الجامدة المتخلفة الفردية الضيقة الافق يفسرها تفسيراً سلبياً على ضوء ثقافته.

ونفس الشيء يمكن ان يقال عن تفسير هذين الإتجاهين للاحداث والمتغيرات، فبينما نرى صاحب الثقافة الحضارية الرسالية يفسر كل حدث بواقعية، ويلقي الضوء على الجوانب الايجابية منه. نجد الآخر يفعل العكس من ذلك تماماً، فلا يرى إلا الجوانب السلبية للحدث. فهو يرى العدم ولا يرى الوجود، ولا يرى الملايين من النعم التي تتوافر عليه من الله سبحانه وتعالى، وحتى إذا نقصت شعرة من شعرات رأسه فانه يحول هذا النقصان الى صحراء من الظلمات يعيش داخلها، ويجعل هذا النقص قناة ووسيلة لرؤية كل النواقص الأخرى في الحياة.

وهكذا فان الثقافة هي الظرف الذي يستقبل الافكار، كما يستقبل متغيرات الحياة وحوادثها، ويلوّنّها جميعاً بلونه؛ فان كان ذلك الظرف نظيفاً شفافاً جعل كل تلك الافكار والحوادث نظيفة شفافة، وان كان وسخاً مليئاً بالجراثيم فان انظف الافكار ستتحول فيه الى افكار سلبية.

محاولات مشبوهة

ومن المعلوم إنّ البشرية لا تمتلك عبر تاريخ الثقافات ثقافة حيوية نقية كالثقافة الاسلامية الموجودة في القرآن الكريم، ومع ذلك فاننا نجد بعض التفسيرات تحاول ان تلحق بالقرآن كلمات من شأنها ان تغير

مفهومه، ومن امثلة ذلك ان البعض يفسر قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^١ من خلال اضافة كلمة (شر) الى القتال، في حين ان هذا الشر لا يوجد إلا في قلوبهم وافئدتهم لا في القرآن الكريم.

ومن ديدن هؤلاء انهم يحاولون ان يحولوا الكلمات الرسالية في القرآن الى كلمات رجعية متخلفة من خلال البحث في القرآن عن الآيات المتشابهة التي وردت بشأنها تفاسير مختلفة، والتمسك بها وجعلها شعاراً لهم في حياتهم، في حين ان القرآن الحكيم يقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾^٢.

ففي قلوب هؤلاء زيغ، لان القلب المنحرف لا يرى الحياة مستقيمة، بل يراها منحرفة لان الزيغ يعني الانحراف.

ثقافة تقليد الآباء

وللاسف فان هناك شعوباً منحرفة متخلفة الثقافة رغم انها تعيش أوضاعاً جيدة من الناحية الاقتصادية والمادية، والسبب في ذلك انها قد ورثت ثقافة رجعية قشرية متخلفة من الاجيال السابقة، حيث كانت هذه الاجيال متخلفة ورجعية فافرزت ثقافة متخلفة مثلها، وما زالت هذه الثقافة تتوارثها الاجيال حتى وصلت الى هذا الجيل.

وللاسف فان هذا هو حال بعض الشعوب المسلمة اليوم، في حين اننا نعيش في هذا العصر وضعاً يلفه إعصار التغيير والتطوير، وتبتلعنا زوابع الاحداث الضاغطة، فلا مكان في هذا العالم للجامدين، والعاطلين، والكسالى.

١ - سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

٢ - سورة آل عمران، الآية: ٧.



وهكذا فان الحياة تدفع الانسان للتحرك، ولا تدعه يسكت، ولكننا من جهة اخرى نرى اننا قد ورثنا من اجيالنا السابقة ثقافة السكون والسكوت، بل النعاس والنوم، فهم أموات الاحياء - كما يقول الامام علي عليه السلام في كلام له: «وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ»^١. ولكن هذه الحياة قد تطورت وتغيرت، ولو كان آباؤنا احياء الآن لغيروا انفسهم وثقافتهم، ولكننا ما نزال على ذلك الوضع بسبب تلك الرواسب المتوارثة عبر الاجيال. ونحن علينا ان نتخلص من هذه الرواسب مع الاحتفاظ باصالتنا الموجودة في القرآن، والاحاديث الشريفة، وفي التاريخ الناصع لبناء الحضارة الاسلامية.

ضرورة العودة الى الينابيع الاصيلية

إنَّ علينا أن ندرس التاريخ متجاوزين أجيال التخلف، ولنعد بانفسنا الى عصر الائمة الطاهرة عليهم السلام، ولنراجع سيرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله واصحابه وائمة الطاهرة عليهم السلام. فالذي يمتلك القرآن يمتلك هدى ونورا وضياءً وذكرًا وبصيرة، ويكون في غنى عن الافكار المتناقضة الجامدة الممزوجة بالشرك والضلالة.

إنَّ القرآن، والسنة الشريفة، وسيرة أهل البيت عليهم السلام والصديقين في متناول ايدينا، ولكن بعض الشعوب أصبحت فقيرة وعاجزة لأن ثقافتها الاصيلية الحيوية الحضارية التي كان يحملها آباؤهم انعدمت بفعل أجيال التخلف. أما نحن فاننا نمتلك هذه الثقافة، ونقف إجلالاً لأولئك الذين كتبوا هذه الثقافة بدمائهم، وحافظوا عليها بارواحهم حتى وصلت الينا. وهذه الثقافة هي ثقافتنا الاصيلية، وهي منهجنا، وينبوعنا، والركن الذي نستند اليه.

وهكذا فان ثقافة الانسان المؤمن بالله واليوم الآخر تنبع من عقله ووجدانه، ومن رسالة السماء المنزلة عليه من قبل الله سبحانه وتعالى؛ اي من الوحي الالهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه الثقافة لا تتغير، وهي الثقافة الاصيلية، والبصيرة الواضحة. في حين أنَّ هناك ثقافة ما هي إلا افراز لوضع مادي واقتصادي معين يعيشه الفرد، وهذه الثقافة قد تكون مغلوطة، ولكن المشكلة الاساسية ان الثقافة الخاطئة يورثها الآباء للابناء، ومن الصعب على الابناء التخلص منها. ونحن بصفتنا مسلمين مؤمنين فإن ثقافتنا نابعة من: الكتاب، والسنة، والعقل، والاجماع الذي يعكس او يكون طريقاً الى فهم الكتاب، واثبات السنة، وبلورة العقل. علماً أنَّ الاجماع ليس دليلاً مستقلاً عندنا بل هو دليل شريطة أن يكون كاشفاً عن رأي المعصوم، وعن القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، وأن يكون مبلوراً للعقل، وإلا فانه ليس بحجة، إذا انعدمت منه الشروط السابقة.

وبعد فهذه هي ادلة الاسلام، ولم يرد عن فقيه انه قال بوجود دليل آخر ورثه عن آبائه، بل اننا نمتلك أدلة صريحة على أنَّ الثقافة التي نرثها من أسلافنا دون ان نعرف هل هي صحيحة ام مغلوطة من الخطأ أن نأخذ بها، ونذعن لها، ونقبلها بشكل مطلق.

وبناء على ذلك فان علينا أن نعمل من أجل تجديد ثقافة امتنا الاسلامية، وازالة ما علق بها من الشوائب والرواسب والانحرافات نتيجة تعاقب الاجيال المختلفة، ومرورنا بعصور التخلف والجمود، وذلك من خلال العودة الى تلك الينابيع الاصيلية والسليمة للثقافة الرسالية.

الفصل الرابع

ثقافة الحياة بين العقل والشهوات

من سمات الثقافة القرآنية أنها تفجر طاقات الانسان الكامنة في ذاته، ومن أبرز هذه الطاقات واسماها طاقة العقل، فلقد زُوِّد الانسان بهذه الطاقة الجبارة وجُعِلَتْ حجةً بينه وبين الله تعالى، وهي بحاجة الى ما يستنفرها، ويبلورها، والثقافة القرآنية هي التي تفجر هذه الطاقة، أما الثقافة الجاهلية المادية فهي تبرر للانسان جهله، وعدم استثماره لعقله، وبذلك نكون بين امرين؛ بين التفجير والتبرير.

والفرق بين هذين الامرين هو كالفرق بين الثريا والثرى، فبينما التفجير (أي تفجير طاقة العقل) يجعل الانسان مسؤولاً وفاعلاً مقتدراً، نرى ان التبرير (أي تبرير الجهل) يجعله خاملاً مهزوماً غير متحمل لمسؤوليته.

الانسان بين حجة العقل وحجة الوحي

فالعقل هو صنو القرآن، فاذا كان القرآن حجة الله الظاهرة، فان العقل هو حجته الباطنة، واذا كان العقل قرآناً باطناً، فان القرآن عقلٌ ظاهر، وبين هاتين الحجتين - حجة العقل، وحجة الوحي - يعيش الانسان مسؤوليته، وفي هذا المجال روي ان الامام الصادق عليه السلام اعتبر



العقل هو الحجة بين الله وبين عباده، حيث قال: «حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّبِيُّ، وَالْحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللَّهِ الْعَقْلُ»^١.

كما وأكد الامام الكاظم (عليه السلام) في وصيته لهشام على أَنَّ العقل حجة، وَأَنَّ ذوي العقول هم أحسن الناس إستجابةً ومعرفةً وأرفعهم درجة، حيث يقول - في حديثٍ مطوّل -:

«يَا هِشَامُ، مَا بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إِلَّا لِيُعْقِلُوا عَنْ اللَّهِ، فَأَحْسَنَهُمْ اسْتِجَابَةً أَحْسَنَهُمْ مَعْرِفَةً وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ أَحْسَنَهُمْ عَقْلاً، وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةَ ظَاهِرَةٍ وَحُجَّةَ بَاطِنَةٍ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ. يَا هِشَامُ إِنَّ الْعَاقِلَ الَّذِي لَا يَشْغُلُ الْحَلَالَ شُكْرَهُ وَلَا يَغْلِبُ الْحَرَامُ صَبْرَهُ...»^٢.

وعلى هذا، فَإِنَّ العقل هو الجانب الآخر للحجة نفسها، فله تعالى الحجة البالغة على خلقه، وبها يفنّد - تعالى - كل تبريرات الناس بعدم علمهم ومعرفتهم، وهذه الحجة هي العقل الذي يستمد النشاط والفاعلية من الوحي والبصيرة القرآنية، وبذلك يصل الى الحقائق في اسرع وقت ممكن، وعن هؤلاء يقول النبي (صلى الله عليه وآله): «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^٣. وفي نفس المعنى يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «حُلَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنَ الْفَقْهِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءً»^٤.

١- الكافي، ج ١، ص ٢٥.

٢- الكافي، ج ١، ص ١٦.

٣- بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٢.

٤- الكافي، ج ٢، ص ٤٨.

استشارة العقل بالقرآن

والفرق بيننا وبين هؤلاء العلماء أنهم استشاروا عقولهم بالقرآن، وبلوروا بآياته الكريمة، ولذلك فعندما يتفتح العقل فانه يخرق الحجب التي تفصل بينه وبين الحقائق، فينفذ علمه الى كل خبيثة من خبايا الكون، اما اذا كان العقل مغلفاً بستار كثيف من الاهواء والشهوات، وبركام من الضلالات والخرافات والتخيلات الباطلة فان هذا العقل لا فائدة ترجى من ورائه.

إن القرآن والكتب السماوية على عظمتها وسموها وفوائدها الغزيرة تصبح كالاسفار الموضوعة على ظهر الحمار كما يصرح بذلك تعالى في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^١، فما يستفيد هؤلاء من الكتب السماوية التي بين ايديهم هو بنفس المقدار الذي يستفيد الحمار من الكتب المحملة على ظهره، وذلك لأن أبصارهم عليها غشاوة، وان الله قد طبع على قلوبهم فهم لا يعقلون.

الثقافة الحية مرهونة بتفجير الطاقات العقلية

فلكي نحصل على الثقافة الحية علينا ان نفجر الطاقات العقلية في أنفسنا، فالمهم ان نزداد علماً وفهماً وتعقلاً، لا ان نكدس المعلومات في اذهاننا، فكما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ»^٢.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ»^٣.

١ - سورة الجمعة، الآية: ٥.

٢ - منية المريد، ص ١٦٧.

٣ - المحاسن، ج ١، ص ١٣١.

وقال ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^١.

ونور الله هو العلم والقرآن، فالمؤمن عندما ينظر الى شخص ما مجرد نظرة فانه سيحمل فكرة عنه وعن طبيعته دون ان يكون في حاجة الى ان يراجع علم النفس والاجتماع.

فالعلم الحقيقي - اذن - ليس هو المعلومات المخزنة في الكومبيوترات، بل هو نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء، فالفرق بينهما ان الاول هو مجرد تخزين معلومات، اما الثاني فهو تفجير للطاقات، فالانسان عندما لا يفجر طاقة العقل في ذهنه فانه سيصبح بمثابة مكتبة لخزن المعلومات فقط.

فالمطلوب - اذن - أن نستنفر طاقة العقل الكامنة في النفس، وأن نستثير دفائنه من خلال القرآن، واذا ما تم ذلك فاننا نكون قد وصلنا الى مرتبة العلماء الربانيين الذين يقول عنهم الإمام علي عليه السلام في حديثه للصحابي الجليل كميل: «يَا كَمِيلُ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا. اخْفِظْ عَنِّي مَا أَقُولُ: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَّعَاغٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»^٢.

والعالم الرباني يكتسب علمه من الله تعالى، والقرآن الكريم يوضح لنا ان اولئك الناس الذين اتخذوا القرآن هزواً انما اتخذوا موقفهم هذا لانهم لا يستثيرون دفائن عقولهم.

١- سورة الحجر، آية: ٧٥.

٢- بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٢٣.

٣- الغارات (ط. ق)، ج ١، ص ٨٩.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^١.

فنعقول هذا النمط من الناس ذات تفكير سطحي، فهم يزعمون ان الرسول المرسل من قبل الله تعالى يجب ان يتمتع بقدرات خارقة لا توجد في سائر البشر، في حين أنه انسان كسائر الناس، والفرق بينه وبينهم انه يحمل هدى الله، ولكنهم لا يقدرون قيمة الهدى والعلم. والسؤال المطروح هنا هو: لماذا اتخذ هؤلاء هذا الموقف المعارض والمتهور من رسول الله؟

الجواب، لانهم لم يعقلوا؛ أي إن طاقة العقل ظلت معطلة في نفوسهم، كما يصرح بذلك تعالى في قوله:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^٢.

فانفسهم هي في الحقيقة انفس حيوانية، وعلينا نحن ان نحذر من الانزلاق الى هذه العاقبة السيئة.

ما هي الثقافة الجحيمية

والثقافة التي تحرك الانسان في هذا الاتجاه هي الثقافة الجحيمية، فما هي يا ترى هذه الثقافة، وكيف نتحرر منها؟

ان أهم شيء يلزم الانسان لكي يحرك عقله هو انه لا بد ان يقتحم العقبة؛ اي ان تلمم ارادتك، وتشحذ عزيمتك، وتوحي بالشجاعة الى نفسك، ثم تقتحم قلب المعركة، وهذه اللحظة التي تدخل فيها المعترك هي لحظة الحياة ولحظة المصير بالنسبة اليك، فلحظة الارادة هي تلك التي تقرر فيها أن تكون مؤمناً، وأن تخالف جميع اهوائك التي تحول

١ - سورة الفرقان، الآية: ٤١.

٢ - سورة الفرقان، الآية: ٤٤.



دون رؤيتك للحق، والعمل به.

السبيل الى اقتحام العقبة

وفي كثير من الاحيان نرى انفسنا بين الحق والباطل، ولكننا نغمض عيوننا لننجرف مع الباطل، فاذا قرر الواحد منا في لحظة من لحظات حياته قراراً نهائياً بان يكون مع الحق، وأن يدفع ثمنه مهما كان غالياً، فاننا نكون قد اقتحمنا العقبة التي اشار اليها تعالى في قوله: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾^١ التي اراد منها معنى فك الرقبة، او اطعام في يوم ذي مسغبة؛ اي التضحية والبذل، وايثار الآخرين على النفس.

فالعقبة هنا هي في الحقيقة النفس التي يجب ان نفتحمها ونتغلب عليها، والمطلوب هنا ان نقاوم هذه النفس، فاذا خرج الانسان من اطار الهوى، ودخل اطار التقوى فقد اقتحم العقبة هذه، ولذلك يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^٢، اي ان النبي الاعظم ﷺ ليست لديه القدرة على ان يصبح وكيلاً عن من اتخذ من نفسه وهواه الهاً، فهو ﷺ شفيع لمن لا يشرك بالله، ومن كان صادقاً في ايمانه.

وهكذا يجب علينا ان نتجنب الاهواء النفسية كالطمع، والحقد، والجزع، وحب الدنيا، وحب الرئاسة، فان تجنبناها سنستطيع اسقاط الحجب المتراكمة على عقولنا، والا فان عقولنا سوف لا تنفعنا، لان هذه العقول محتجة بالهوى، والهوى هو آفة العقل، كما ان التعصب للباطل هو ايضاً آفة العقل والهدى، والصبر خصلة حسنة ومطلوبة ولكن الصبر على الباطل مدموم، وكذلك الحال بالنسبة الى التعصب

١- سورة البلد، الآية: ١١.

٢- سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

فانه يكون خصلة جيدة اذا كان للحق لا للباطل، ولكن مشكلة الانسان انه يتعصب للآراء الباطلة، وهي مشكلة خطيرة نرجو من الله تعالى ان ينقذنا منها.

وهكذا فأن العلم يتصل اتصالاً وثيقاً بالاخلاق، فمن دون الاخلاق الفاضلة لا يمكن أن نحصل على علم حقيقي، فمجرد خزن وحفظ المعلومات لا يمكن ان يجدينا نفعاً اذا لم نقرن هذه المعلومات بالتقوى والتزكية والتربية، وتنمية وتفجير الطاقات الايجابية الخلاقة في انفسنا، وهذا هو الطريق الأمثل الى اكتساب العلم.

الفصل الخامس

الثقافة القرآنية وتطورات الحياة

من العقبات الرئيسية التي تعترض طريق الايمان، وتحول دون وصول الانسان الى التكامل والرقى، عقبة الجمود والركود. فالانسان بطبيعته يخشى التطور والتغير، وكثيراً ما يحاول الابقاء على حالته الراهنة بطريقة او بأخرى.

ولكي يززع الاسلام القناعات الجامدة في قلب الانسان زعزعة عنيفة فانه يذكّره باليوم الآخر، ذلك اليوم الرهيب الذي ترى فيه الارض تهتز وتميل، وترى الجبال على عظمتها تسير كما يسير السحاب، بل وتحول الجبال الى عهن منفوش، وتتلاشى هذه الصخور العظيمة التي يزعم الانسان ان من المستحيل ان تتحرك.

تنمية روح التقوى كأساس للثقافة

وفي كل ذلك دلالة على ان الحق هو الشيء الوحيد الثابت في هذا الكون، فكل شيء يفنى، ويتلاشى، والذي يبقى هو وجه الله الكريم، ومن ضمن مصاديق وجهه الكريم السنن والحقائق والبصائر، وفي سورة الحج يحدثنا القرآن عن العلم والثقافة وعن بصائر الانسان التي تهديه الطريق، ولكنه يبدأ بداية صاعقة عنيفة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا



رَبَّكُمْ^١، فلا بد ان تنمو في نفوسنا روح التقوى والحذر والتحصن من المزالق والاطار لكي تمنع عنا هذه الروح عذاب الله الشديد: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ^٢ .

وحينما تهتز هذه الارض التي كنا نعتمد عليها ونثق بها، فماذا يبقى؟، العلاقات التي بنيت على هذه الارض سوف تتزلزل كما تزلزلت الارض، لان هذه العلاقات هي علاقات الارض، فالارض على سعتها، واستقرارها سوف تهتز وتميل فكيف بتلك العلاقات التي انبعثت منها، ولكي يضرب الله تعالى لنا مثلاً قريباً وواضحاً يجسّم لنا علاقة الام برضيعها التي هي اعمق وابغ العلاقات: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا^٣ . فهذه العلاقة الوثيقة سوف تتفكك رغم أن مسؤولية الام تجاه حملها هي أعظم المسؤوليات، لانها تحس بهذه المسؤولية أكثر من إحساس الآخرين بأية مسؤولية اخرى، ومع ذلك فان هذه الأم سوف تضع حملها في ذلك اليوم.

فالإنسان سوف يتحلل في يوم القيامة من كل ارتباط بينه وبين الآخرين، وبينه وبين الطبيعة ليتخفف، وبالتالي يكون بمستطاعه - حسب تصوره - الهروب، ولكن الى اين؟ وهل يمكن الفرار من حكومة الله؟ الارض كلها سوف تتزلزل، والجبال تندك، والسماء تصبح حمراء كالوردة الدّهان، اي سوف لا يعود بإمكانها حفظ الانسان من الاشعة والنيازك، سوف لا تبقى سقفاً محفوظاً كما هي اليوم، لأنّ الكون كله سوف يتحول ويتغير. ثم يستأنف تعالى قائلا: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى^٤ ومن المعلوم ان الانسان يزداد جدية وحكمة ورؤية للحقائق في حالة الخطر، لأنّ

١- سورة الحج، الآية: ١.

٢- سورة الحج، الآية: ١.

٣- سورة الحج، الآية: ٢.

٤- سورة الحج، الآية: ٢.

الالم يزيد من الوعي، فالانسان حينما يتألم يقترب من الحقائق، ولكن الالم يوم القيامة شديد الى درجة أن الانسان لا يستطيع ان يركز ذهنه، فالخطر أكبر من حجم تفكير الانسان، والسكر هنا ليس هو الانتعاش والنشاط والحيوية، وانما هو سكر الهروب من العذاب، والتحير فيما يقع فيه الانسان.

فعلينا - إذن - أن نسعى في هذه الدنيا لنحصل على الامن في ذلك اليوم، وطريق الحصول على هذا الامن يتمثل في أن لا نعبد الافكار الجامدة، ولا نجمد على مجموعة من القنوات التي لا نعرف مدى صحتها.

العلم الحق سبيل تحصيل الثقافة

إنَّ هذه الآيات تحدثنا بشكل مباشر عن العلم، وعن ضرورة البحث عن العلم الحق، وعدم الاقتناع ببعض الافكار الجامدة غير المقطوع بصحتها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾^١، ومن هذه الآيات وغيرها في هذه السورة نستوحي أن هدف القرآن هو أن يجعلنا نلتصق بالعلم والعقل والثقافة الحقة، وان لا نستمر مع الاهواء والشهوات والقناعات المغلوطة التي اشبعنا بها بيئتنا، ومجتمعنا، والتي بقينا ندور فيها بغير هدى.

ومن امثلة هذه القناعات المغلوطة هو أننا نجد بعض العوائل تتبّع فقيهاً ما منذ مائة وخمسين عاماً، أي أن جدهم الاعلى كان يقلد المرجع الفلاني، وهكذا توارثوا هذا التقليد كابراً عن كابر، في حين ان التقليد هو علاقة مباشرة بينك وبين من تعرفه، فعليك أن تعرف عن كذب



دينه واخلاصه وفقهه واجتهاده وزهده وتقواه، وبالتالي ان تعرف بالضبط أنّ هذه الشروط متوافرة فيه بشكل كامل، وهذا هو المعنى الحقيقي للتقليد، وهو يجعلك يوم القيامة صاحب حجة امام رب العالمين بشأن من تقلده.

وفي الواقع حينما تتجلى الحقائق يتبين لنا أنّ الكثير من الانماط الثقافية الشائعة في اوساط الامة هي بحاجة الى اعادة النظر، فالثقافة هي مجموعة الافكار المؤثرة في سلوك الانسان حسب ما يقوله علماء الاجتماع، وهي ذلك العلم، وتلك المعارف التي تتصل اتصالاً مباشراً بحياتنا، وسلوكنا، ومواقفنا، وكل اختلاف بين الناس في هذه المجالات انما هو ناجم من طبيعة ثقافتهم، فالثقافة تصنع المواقف الأساسية، وتبلور سلوك الانسان.

من الضروري ان نعيد النظر في ثقافتنا

ومع ذلك فان الثقافة الموجودة عند اغلبنا تحتاج الى اعادة نظر من محورين: المحور الاول هو أنّ ثقافتنا ينبغي أن تكون ثقافة القرآن، وبالتأكيد فاننا نقرأ القرآن ونسمع تفسيره، ولكن هل يمكن لأحدنا أن يدّعي - مجرد إدعاء - أنّ كل مواقفه، وكل استراتيجياته وبصائر حياته، ومنهاج سلوكه مستوحاة بشكل كامل من القرآن الكريم؟

بالطبع لا يمكن لأحدنا أن يقول بذلك، فنحن نقرأ القرآن قراءة غير واعية، وبيننا وبينه حالة هجران، وقد نقل تعالى ذلك على لسان نبيه العظيم قائلاً: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^١. والمشكلة الاساسية في ثقافة الامة ابتعادها عن القرآن الكريم، لانه

لم يعد للاسف محور ثقافتها.

والمثال على ذلك أَنَّ هناك آيات في القرآن الكريم تحدد آداب المجالس التي يعتبر بعضها واجباً والبعض الآخر مستحباً، ومن امثلة الواجب قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْأَنِّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾^١. فالمجالس يجب ان لا تنحى منحى سلبياً، منحى الكذب والافتراء والغيبة والتهمة والنميمة واحاديث اللهو، فهذا كله اثم وابرزه الكذب والافتراء ثم العدوان، فالكثير من المجالس تتحول الى تجمع للذنوب والمعاصي، والآيات القرآنية تكون شديدة وحادة اللهجة عندما تحدثنا عن الظلم، وخصوصاً ظلم الآخرين، حتى ان الشهيد على ما يتمتع به من درجات رفيعة تبقى على عاتقه تبعة الظلم.

وللاسف فاننا نعتقد ان عدم ظلم الآخرين يتمثل في ان لا نسرق منهم، ولا نغشهم، ولا نعتدي عليهم فحسب، في حين أننا إذا جلسنا في الخفاء، وتكلمنا ضد اخواننا المؤمنين في اي مكان كانوا، فاننا نكون قد ظلمناهم في الحقيقة، وعلينا ان نبحث عنهم لنستحلّ منهم.

وهناك بالاضافة الى ذلك آداب مستحبة للمجالس، مثل هذا الادب الذي تشير إليه الآية القرآنية التالية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾^٢. فعلى المؤمن أن يتفَسَّح في المجالس حينما يطلب منه ذلك.

فلنرَ كم نحن ملتزمون بهذه الآداب، وبهذه التعاليم الالهية، وهل ثقافتنا هي ثقافة قرآنية ام لا؟، ولننظر الى علاقتنا بالآخرين، علاقتنا بمن هو اغنى او افقر منا، فهل نتذلل ونتخضع لمن هو أكثر منا مالاً،

١ - سورة المجادلة، الآية: ٩.

٢ - سورة المجادلة، الآية: ١١.



ونتعالى على من هو أقل منا مالاً؟ وهذه العلاقة خطأ في كلا الحالتين، فنحن يجب ان لا نخضع لمن هو اغنى منا، ولا نتعالى ونستكبر على من هو أفقر منا، ولنقارن بين الثقافة التي نعيشها والثقافة القرآنية؛ ترى هل حصل عندنا تحول عملي وسلوكي على ضوء الثقافة القرآنية؟

ثقافتنا بحاجة الى تغييرات

وعلى هذا فان المشكلة الرئيسية التي تعاني منها ثقافتنا انها ابتعدت عن المنحى الذي رسمه لنا الوحي، ثم إنَّ الثقافة التي تثقفنا بها بحاجة الى تغييرات حسب الظروف، فلكل ظرف ثقافته وتعاليمه، وعلينا ان نبذل سلوكنا حسب الظروف العامة، وعلى هذا فان الثقافة التي توحى بهذه السلوكيات يجب ان تتغير هي الاخرى، ومشكلتنا اننا ننظر الى الامور الثقافية نظرة واحدة، ولو راجعنا الروايات لوجدنا - مثلاً - أنَّ احاديث الامام امير المؤمنين عليه السلام تنضح بروح الجهاد والتحدي، وتطالب الامة بالجهاد وحمل السيف والتحرك والقتال، في حين اننا نجد أنَّ الامام الصادق عليه السلام يحدثنا بشكل آخر، كأن يأمرنا بان نلتزم بالتقية: «إِنَّ التَّقِيَّةَ تَرْسُ الْمُؤْمِنِ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا تَقِيَّةَ لَهُ»^١. فأين هذا الحديث من أحاديث الامام علي عليه السلام؟ ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام في عهد الامام الصادق عليه السلام لأمرنا بمثل ما أمرنا به، والعكس ايضاً صحيح. والجماهير بحاجة الى ما نحدثهم به بصورة جاهزة، اي ان نوجههم لكي ينبعثوا الى العمل مباشرة، من الواجب علينا ان نثقف الجماهير بهذه الامور المتجددة، وهذا التجديد هو ركيزة حاجتنا الى الفقهاء.

تكييف الثقافة حسب المتغيرات من قبل الفقهاء

وللاسف فإنّ قسماً من الناس يتصورون ان حاجتنا الى الفقهاء تقتصر على بيان مسائل الصلاة والصيام وما شاكل ذلك، في حين ان الامام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يقول: «وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُؤَاةِ حَدِيثِنَا فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَ أَنَا حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ»^١. والحوادث الواقعة هي المسائل المتجددة.

وقد يسأل أحدنا قائلاً؛ لماذا لم يكتب أحد الائمة عليه السلام كتاباً فقهياً ضخماً فيه تفصيل كل شيء، ونقوم نحن بتطبيقه؟، السبب في ذلك بالطبع ان الظروف تتغير، والنصوص الفقهية المختصة ب (الحوادث الواقعة) لا بد وان تتغير معها، فالائمة عليه السلام بينوا لنا الاصول ثم وجهونا بعد ذلك الى الفقهاء، ولكل عصر فقيه، والفقيه يصدر حكمه على اساس الظروف المتجددة. فنحن نحتاج الى هؤلاء الفقهاء ليحددوا لنا ما نفعله اليوم وغداً، ولذلك افتوا بان تقليد الميت لا يجوز ابتداءً، بل إنّ قسماً من الفقهاء يرون أنّ تقليد الميت لا يجوز مطلقاً، والذي يجوز من فقهاءنا تقليد الميت فانما يجوز المقلد في المسائل التي عمل بها او عموماً واعتماداً على فتوى فقيه حي يجيز لك ان تبقى على فتوى الفقيه السابق.

فعلقتك يجب ان تكون مقتصرة على الفقيه الحي الذي يعيش الظروف، وينقذك في المواقف الصعبة، الفقيه الذي يواجه المشاكل والصعاب المحدقة بالامة.

فالعلاقة بين الناس والفقيه يجب أن لا تكون علاقة تلقي الأوامر والمناهي فحسب. صحيح أن الناس من حقهم أن يراقبوا أفعال الفقهاء



ضمن ما يفهمونه بعقولهم، او يستلهمونه من القيم الالهية، أي إنَّ مجمل القيم الالهية التي يشتمل عليها القرآن تمثل ركيزة لرقابة المجتمع الاسلامي على قياداته، ولكن هذا لا يعني أنَّ الناس هم الآمرون في كل القضايا، ومن حقهم أن يخالفوا الفقيه بذريعة إختلاف الفقيه السابق او اللاحق معه في رأيه.

وعلينا أن ننتبه أن المقصود هنا هو (الحوادث الواقعة) لا المسائل الثابتة، فلننظر - مثلاً - الى هذه الحضارة الحديثة، ولنرَ كم فيها من تغيرات وافكار وقضايا، من خلال التعرف على أخبارها وحوادثها أولاً بأول، فنحن في هذا العصر لا نستطيع الاعتماد على الافكار والاحاديث الثابتة، فلا بد من ان يكون هناك من يغير، وهذا الذي يغير هو الفقيه، لانه يعرف ما الذي يجب ان يتغير، وما الذي لا يحتاج الى التغيير.

ثقافة اللب لا القشور

وللأسف فان البعض يعتقد ان الغربيين قد غيروا بلداننا نحو الافضل، في حين انهم لم يكونوا يهتمون الا بمصالحهم، ولقد اخذنا منهم مجموعة قشور، ذهبنا الى اوروبا فرأينا الاوروبيين يلبسون القبعة بدلا من (القلنسوة) و(العمامة) اللتين نرتديهما، فغيرنا اغطية رؤوسنا الى قبعات، وهكذا لم نغير اللب وانما غيرنا القشور فحسب.

من كل ذلك نستنتج ان الفقيه هو الذي يجب ان يتولى مهمة التغيير والتطوير، وإن لم يقدروا فهناك هؤلاء المسؤولين فسيعيش الناس ازمة حقيقية تتمثل في انهم سيقفون في حيرة من أمرهم، فالفقيه يجب ان يُطلع الناس على الرأي والموقف الصائبين في مختلف المسائل الحيوية التي تعيشها الامة.

الفصل السادس

ثقافة القوة والاقتدار

ترى كيف نجعل من الارهاب الذي يلقي بظلاله الثقيلة اليوم على البلدان الاسلامية مدرسة لتخريج جيل من الابطال الذين يتحدثون العقبات الكأداء؟، وكيف نجعل منه مصنعاً لرجال التاريخ الذين يبنون الحضارة ويثرونها في اقطار الارض؟ فمن المفروض ان الارهاب الجاهلي التكفيري كلما ازداد بطشاً وعنفاً يجب علينا بدورنا أن نزداد ايماناً وقدرة على أن نتحده ونكون أقوى منه.

فالمطلوب - اذن - ان يتحول الارهاب الجاثم على صدر شعوبنا الاسلامية الى مدرسة ومعراج لتزكية نفوسها، وبلورة مفاهيمها، وشحن عزائمها، لكي لا تبطل بمثل هذا الارهاب مرة اخرى.

الثقافة مصنع شخصية الانسان

ان الانسان انما ينطلق في حياته من قاعدة الثقافة التي صنعت شخصيته، لان الثقافة تمثل القوالب التي تتشكل فيها شخصية الانسان، وتحول الحوادث والمتغيرات التي يمر بها الى مكونات تتفاعل تلك الشخصية معها، والثقافة ان كانت حيّة ونابضة بالحياة والنشاط. بإمكانها ان تحول كل منعطف تأريخي خطير بل كل محنة وشدة الى



معراج وسلم لكمال الانسان.

أما إذا كانت الثقافة ميتة وجامدة فانها سوف لا تجدينا نفعاً في المحن والشدائد، ولكي يكون موقف الانسان تجاه الحوادث الصعبة التي يمر بها موقفاً ايجابياً، فيصنع من الخسارة مكسباً، ومن الهزيمة انتصاراً، فلا بد له أولاً من أن يغيّر رؤيته للحياة، وبالتالي يغير ذلك المصنع الخفي الكامن في نفسه الذي يستلم مواد الافكار والثقافة ليحولها الى جسم حي نابض بالحركة والنشاط.

الانسان المؤمن لا تزعزعه صعوبات الحياة

ان المؤمن المزود برؤية سماوية، وبصيرة الهية، وايمان بقدرة الله، وبرحمته الواسعة لا يتزعزع، ولا يزداد - وهو يواجه صعوبات الحياة - إلا صلابة وايمانا وثقة باقتراب رحمة الله، كما صرح بذلك الخالق تعالى في محكم قوله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^١.

فالمؤمن ينتظر رحمة الله وروحه، ويكون ذلك بأجلى صورة عندما تشتد الازمة، وعندما تزداد الكربة ظلاماً، حينها لا يمكن أن يقهر هذا المؤمن، لان المؤمن اقوى من الحديد واكثر بأساً من الجبل؛ فالحديد يذوب بالنار، والجبل ينال منه بالمعول، ولكن قلب المؤمن لا ينال منه شيء، ذلك لأن هذا الانسان المؤمن يوقن أن المهيمن على هذا الكون هو ربه، فبالرغم من عريضة الطغاة، وصيحات الجاهليين، وارهاب المفسدين والمستكبرين فان القدرة تبقى بيد الله، فليس من المعقول ان يترك تعالى عباده عبثاً، فيمارس الطغاة الظلم والقهر؛ وان يفعلوا ما

يشاؤون، ثم لا ينصر المؤمنين، ويجعل الدولة لهم.

ثقافة المؤمن ثقافة الأمل

فشخصية الانسان المؤمن الثقافية قد مُزجت مزجاً بالأمل بالله تعالى وبالتوكل المطلق عليه، فكيف يمكن ان تنهار هذه الشخصية؟، ولان المؤمن يعيش الأمل، فانه يفتش دائماً لكي يجد الطرق الكفيلة بالخروج من الازمات الصعبة بالرغم من اشتدادها، فليس من الصحيح أن نقول أن الله تعالى ينصر المؤمنين عبثاً عند اشتداد الكرب، وتفاقم الازمات، ومن دون سعي من قبلهم، بل الصحيح أن نقول إنَّ على المؤمنين ان يكتشفوا وسائل جديدة ليتغلبوا بها على المشاكل عند اشتدادها، وعندما تخيم على العالم الاسلامي موجة من الارهاب الجاهلي.

إنَّ جميع المعادلات الكومبيوترية التي يعبدها الغرب تقرر ان الاسلاميين قد انتهوا، او هم في طريقهم الى النهاية، ولكن جيلاً من أبطال الرسالة الناشئين قد ترعرع الان في جميع انحاء العالم الاسلامي، وخصوصاً في العراق، حيث انبعث هذا الجيل من تحت ركام الاجساد المبعثرة على تربته التي دنَّسها الطغاة المجرمون، فانطلق بذلك من تربة خضبتها دماء الشهداء، وهذا الجيل هو جيل التغيير والمواجهة الذي سيكتسح الإرهاب، ويكتسح معه كل الاقدام الاستعمارية التي تقف مع الإرهاب، وسوف يقر هذا الجيل أعيننا جميعاً إن شاء الله.

والسؤال المطروح هنا هو: كيف تخرج جيل المقاومة والتصدي من واقع المأساة في العراق بل وفي الوطن الاسلامي كله؟ وكيف تخرج من مدرسة الارهاب الدموي رواد الثورة ومعلموها، ولماذا؟، لا شك لان



الارضية كانت طيبة استوحت من القرآن آمالها ومن السنة اهدافها ورؤاها.

فلقد ظل المسلمون طوال أربعة عشر قرناً يتزودون من القرآن القوة امام كل الغزوات، حتى انهم استطاعوا الصمود في وجه الطوفان التتري المظلم ونشروا رسالتهم من جديد، لانهم احياء بالقرآن، ومن يمتلك القرآن لا تضلله دعايات السوء، ولا توهن عزمه جرائم الإرهاب.

ان ضمير الامة ممزوج بروح القرآن، ولا يمكن ان يسمح للاعلام المضلل ان يغير الواقع، ولو كان بمستطاع المال والقوة أن يسلبا من المؤمن عقله وفكره لبقى نمرود وفرعون، ولبقى امثالهم من الطغاة عبر التاريخ، ولكنهم سقطوا لان وعي الانسان اقوى من تضليل المضللين.

الفصل السابع

المسلمون وثقافة الحياة

من المعلوم أنَّ القرآن الكريم يزوّد الانسان بنور يستطيع ان يمشي به في ظلمات الارض، وأنَّ فضله على كلام البشر كفضل الله - جل وعلا - على خلقه، فهو قادر على ان يمنح الانسان أكثر من حضارة ومدنية.

ومع ذلك فاننا ما نزال نعيش الجاهلية المغلّفة بظاهر من الدين، ونحاول أن نحيط التخلف بظاهر من التقدم متصورين أنَّ الهزيمة التي منينا بها هي فتح مبین!

إنَّ من العجيب أن تعيش أمة بُنيت على أساس القرآن، واستلهمت قيمها من الوحي، أن تعيش اليوم في ظل التخلف والتبعية، والذل والصغار، وفي هذا المجال علينا ان نبحث باصرار عن حل لهذا التناقض، وإجابةً لهذا السؤال المهم الخطير وهو: لماذا ما يزال المسلمون متخلفين وبين ايديهم كتاب الله عزَّ وجل الذي يضمن لنا الحضارة السامية التي تنطلق من الارض وتمتد الى الجنة؟

في الآيات القرآنية نفسها اجابة صريحة على هذا التساؤل، ذلك لأنَّ القرآن الكريم هو كتاب عظيم ولكن لمن يعرف قدره، وذكر لمن يتذكَّر، وعلم لمن يعقل، وهدى لمن يتقي، ونور لمن يوقن. فلا يكفي



ان يكون بيننا هذا الكتاب دون ان نكون في مستوى تقبل آياته. فنحن نعلم أنَّ الانسان عندما يريد الانتفاع من شيءٍ ما فان هناك شرطين لهذا الانتفاع هما: أن يكون هذا الشيء نافعاً، وأن يكون الانسان نفسه قادراً على الانتفاع منه.

إنَّ الشمس منيرة ولكن لمن يمتلك عينيْن بصيرتين، اما الانسان الاعمي فان النور الساطع وظلام الليل سواء بالنسبة اليه، والانسان الاصم لا يستطيع ان يفرق بين عواء الكلب، وزغردة البلابل. ومشكلتنا نحن مع القرآن الكريم هي اننا لسنا في مستوى الاستفادة منه، فنحن عندما نتلو هذا الكتاب العظيم فاننا لا نستطيع ان نستلهم منه ذلك الوعي، وتلك البصيرة والرؤية التي كان أصحاب نبينا الاعظم ﷺ يستوحونها منه، ذلك لان هناك قوالب فكرية ضيقة ما تزال تعشعش في اذهاننا، وعندما نقرأ القرآن الكريم فاننا نبادر مباشرة الى صب آياته في تلك القوالب.

فكّر وتدبّر

ولذلك فان القرآن يطلب منا دوماً ان نتفكر، ونتدبر، وننظر، ونمشي في آفاق الارض، وبالتالي فانه يريد منا أن نوسّع من قدرتنا على الاستيعاب من خلال التدبر والتفكير. ولذلك فان التفكير يُعد من أصعب الأمور على الانسان، فهو مستعد لأن يشغل نفسه بأعمال عبثية كثيرة يقضي خلالها الساعات الطوال دون أن يكلف نفسه عناء التفكير ولو لساعة واحدة.

إنَّ التفكير السليم هو أن يمتلك الانسان القدرة على ان يميز الافكار الحقة والباطلة، وأن يطبق النوع الاول من الافكار على واقعه، ويصوغ

لنفسه منها برنامجاً للعمل، ولذلك يقول الحديث الشريف: «تَفَكَّرْ ساعةَ خَيْرٍ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»^١. أي إنَّ عمر الانسان كله يقع في كفة، وتفكره السليم لساعة واحدة يقع في كفة أخرى.

سُلم الاولويات في الحياة

إنَّ المشكلة الرئيسية التي نعاني منها هي أننا كثيراً ما نضيع أوقاتنا في المسائل الثانوية، في حين أنَّ سلم الاولويات يعد قضية أساسية في الحياة. فأي إنسان عاقل يدرك فطرياً أنَّ هناك اولويات في حياته، فهو يدرك - مثلاً - انه يحب ان يكون موجوداً في البدء، ثم ان يكون سليم الجسم، وقادراً للحصول على الطعام والشراب والملابس والمكان، و... ولكن هناك قسماً من الناس يضيعون - للأسف الشديد - هذا التسلسل في حياتهم.

ونحن المسلمون قد ضيعنا سلم الاولويات هذا، فلم نعد نمتلك ثقافة الحياة. في حين ان بعض الخبراء في هذا المجال يقررون ان هذه الثقافة تمثل علم العلوم؛ اي العلم الذي ترتبط به سائر العلوم، لأنه هو الذي يبيِّن لنا منهج حياتنا، ومسيرتنا في هذه الدنيا، ومن اين جئنا والى اين نسير، وما الذي ينتظرنا من الحوادث، وما ينبغي ان نتزود به في هذه الدنيا.

حاجتنا الى ثقافة الحياة

إننا - للأسف - نقرأ القرآن دون ان نعرف كيف نتفكر فيه، وكيف نطبق تعاليمه على انفسنا، وكيف نعي آياته، وهذه هي مشكلة رئيسية من المشاكل التي نعاني منها، في حين اننا - كمسلمين - بحاجة الى



ثقافة الحياة، والى ان نفهم الحقائق الكبرى، وطريقة التعامل مع ظواهر الحياة، ومع انفسنا، وطاقاتنا وطاقات الآخرين.

إنَّ علينا أنْ نسأل أنفسنا في هذا المجال: هل استطعنا ان نستوعب ثقافة الحياة؟

إننا عندما نراجع حياتنا، ونتأمل في التربية التي تلقيناها، والظروف المختلفة التي أحاطت بنا نكتشف أنَّ حياتنا كانت في القسم الاغلب منها سلسلة متصلة من الاحباطات سواء في وسط الاسرة، ام المدرسة، ام المجتمع بصورة عامة. فالآخرون كثيراً ما كانوا يتعاملون معنا بأسلوب عنيف قاس، وهكذا الحال بالنسبة الى الحكومات فانها تتعامل مع شعوبها بالارهاب والتهديد، الى درجة أنَّ الواحد منا من النادر ان يسمع من الآخرين كلمة تشجيع وحث على الأمل والتفاؤل، كأن يقال له: إنك خُلِقْتَ لتكون خليفة الله تعالى في ارضه، ولتكون من اهل الجنة، وانك كريم عند الخالق، فحاول ان تستغل عمرك، وأن لا تضيع أوقاتك. بل ان الأمر على العكس من ذلك، فبدلاً من ان يتفوّه المحيطون بنا كلمات التشجيع والتحريض والتكريم والاشارة، اذا بهم يحشرون في آذاننا كلمات وعبارات كلها احباطات، وافكار سلبية وتوجيهات متناقضة.

إنَّ من الطبيعي ان لا يستطيع الواحد منا ان ينمو، وان تتفتح مواهبه وابداعاته، وتتفجر قدراته وطاقاته عندما لا يجد من يعلمه ثقافة التوكل على الله تبارك وتعالى، وثقافة الثقة بالنفس، والتطلع، والطموح.

ان هذه الثقافة هي التي تنقصنا، وانعدام هذه الثقافة هو الذي يجعل الانسان المسلم مترجعاً، ومنهزماً من الناحية النفسية، ومتردداً، ومعانياً في شخصيته من ألف عقدة وعقدة، كعقدة الشعور بالضعف، والتشاؤم، والجبن، والانهازامية، وسوء الظن بالآخرين.

ومن المؤكد أنَّ هذه العقد ظهرت بسبب سوء التربية، وعدم امتلاك ثقافة الحياة، فكل واحد منا ما يزال يشعر بمرارة الاهانات التي وجهت الى شخصيته منذ صغره. في حين أنَّ الاسلام يأمر بتكريم شخصية الانسان، وعدم توجيه الاهانة اليها حتى وان كان طفلاً صغيراً.

من هنا ينبغي ان نقوم بوضع برنامج لإصلاح أنفسنا، لان الانسان على نفسه بصيرة، والله سبحانه وتعالى قد منحه القدرة على ان يميز بين الخطأ والصواب، ويكتشف الطريق الصحيح.

وبالطبع فاني لا اطلب من الانسان ان يصلح نفسه خلال فترة قصيرة، ذلك لان كل صفة سلبية تكمن وراءها مجموعة من العوامل التاريخية المتجذرة في نفس الانسان، ولكنني أقصد أن يعتمد الى تحديد عيوبه، وصفاته السلبية لكي يستطيع على ضوء ذلك أن يضع برنامجاً لإصلاح نفسه. فمن المفروض به أن يجاهد ويكافح من أجل اقتلاع الصفات السلبية من نفسه، لأنَّ هذه الصفات سوف تنتهي به الى عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

ومن ضمن الاساليب التي يستطيع الانسان من خلالها أن يبادر الى إصلاح نفسه تذكُّر يوم القيامة وأهواله، والاستعاذة بالله تبارك وتعالى من نار جهنم، وتذكر الموت، وأنَّ الانسان لا يعلم متى يحل أجله فيصبح رهين الجنادل والتراب، وأنه قد يتعرض في القبر للعذاب الليم بسبب سوء أعماله، ولنفترض في هذا المجال - وهو افتراض صحيح - أنَّ الانسان قد أصيب بما يشبه ألم الضرس في قبره فماذا عساه ان يفعل في هذه الحالة؟ ان كان يعيش في الدنيا فان بإمكانه ان يقضي على هذا الألم من خلال مراجعة الطبيب، ولكن ماذا سيفعل في القبر؟ ان هذا الألم سيظل يعاني منه بالتأكيد الى يوم القيامة الذي لا يدري كم من



السنوات سيستغرق، فان كان الانسان لا يستطيع ان يتحمل هذا الألم البسيط فكيف يستطيع ان يتحمل عذاب نار جهنم؟!
فلنستجر بالله تقدست اسماءه من عذاب النار، ولنحاول أن نبرمج أوقاتنا من اجل القضاء على الصفات السلبية، آخذين بنظر الاعتبار أن من الواجب علينا أولاً أن نحدد ونكتشف تلك الصفات مثل الحسد، والحقد، وسوء الظن، والروح السلبية المتشائمة، والكفران بالنعمة، وعدم الرضا بما يقسمه الخالق تعالى، في حين أن على الانسان أن يقنع ويرضى بما يقدره الله له. ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْيُسْرِ مِنَ الرِّزْقِ، رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْيُسْرِ مِنَ الْعَمَلِ»^١.

فاذا أردت ان ييسر الله جل جلاله لك أمورك، فعليك أنت بدورك ان ترضى باليسير منه بأن تكون عبداً شكوراً دائماً، وترضى بما يعطيك ربك لكي يرضى هو ايضاً عنك دائماً.

النظرة الايجابية

وفي هذا المجال علينا ان ننظر الى الامور نظرة ايجابية، فمثلاً نرى السلبيات فان علينا ايضاً أن نرى الايجابيات، ونرى نعم الله تبارك وتعالى. فما دمنا نعيش في هذه الدنيا فمن الواجب علينا ان نشكر الله في اية حال، حتى في حالة نزول المصائب والمحن والابتلاءات علينا، لان الدنيا عبارة عن سلسلة متصلة من الاختبارات والامتحانات.
وبناء على ذلك فان من المتعين علينا في البدء وقبل أن نبدأ بصياغة برامجنا الاصلاحية لانفسنا أن نحدد الصفات السلبية ثم نصوغ بعد ذلك

وبالاستناد الى هذا التحديد برنامجنا الاصلاحى لكي نستطيع بذلك ان نقضي على جميع الصفات السلبية المذمومة التي تعاني منها أنفسنا، لأنّ الانسان هو المسؤول الأول والأخير عن تزكية نفسه، وتطهيرها من شوائب الدنيا، وادرائها، وهو وحده الذي يستطيع ان يفعل ذلك؛ فإما أن ينجح في تزكية نفسه فيفوز، وإما أن يخفق في ذلك فيكون مصيره الخسران والخيبة كما يقول عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^١.

الباب الرابع
النهج الثقافي

الفصل الأول

منهجية التفكير السليم

التفكير المتعمق الواعي يفتح الابواب الجديدة على مصراعيها أمام الانسان، ليكتشف في حياته آفاقاً واسعة لم يكن يحلم بها ابداً، وليتمتع بمتع لا تنتهي في حياته الدنيا، واخرى سينعم بها في حياته الاخرى. والناس في هذا المجال على نمطين؛ نمط يفكر، ونمط يقلد. وهناك نمط آخر يمزج بين هذين النمطين، فهو يفكر في جوانب، ويقلد في جوانب أخرى، ومع ذلك فانا نلحق هذا النوع من الناس بالمقلدين، ونعتبرهم كالذين لا يكلفون أنفسهم عناء التفكير والابداع. ومن المعلوم إنَّ الفرق كبير بين هذين النوعين من البشر؛ فالنوع الأول يفكر ويبدع ويخترع ويرى الاشياء والحقائق بعينه، والنوع الثاني يقلد ويتبع وينتظر الآخرين لكي يوجهوه ويقودوه وكأنه أعمى لا يهتدي الى سبيل من تلقاء نفسه.

وهكذا فانا نرى أنَّ الفرق كبير الى درجة أننا لا نستطيع أن نقول إنَّ النوع الاول عالم والنوع الثاني جاهل، وانما لأجل أن نصوّر الفرق الشاسع بينهما علينا أن نقول إنَّ الفرق بينهما كالفرق بين الحياة والموت. فالنوع الاول حي والثاني ميت، وقيمة الحياة هي قيمة الاكتشاف والعلم والابداع والتفكير. فالذي لا يفكر لا يمكن ان



يكشف ويبدع، وبالتالي فانه سوف لا يترك أي تأثير على الحياة. والآن علينا أن نطرح على أنفسنا الاسئلة المهمة التالية: كيف نفكر؟ وما هي العقبات التي تعترض طريق التفكير، وما هي الوسائل والاساليب التي تساعد الانسان على تكامل التفكير؟ وفيما يلي سنحاول الاجابة على هذه الاسئلة الواحد بعد الآخر:

السبيل الى التفكير الصحيح

قبل كل شيء لابد أن نثق بأفكارنا، وعلى سبيل المثال فان الطفل لا يمكنه ان يفكر بشكل مستقل لانه ضعيف، ومقهور، وتابع لاسرته. وحتى لو استطاع التفكير، وتوصل فكره الى نتيجة معينة فانه لا يستطيع أن يفرض هذه النتيجة على مجتمعه الخاص في البيت، وفي الوسط الذي يعيش فيه، لانه مغلوب على أمره.

وكذلك الحال بالنسبة الى المجتمع المستعمر المحروم من وسائل الحرية والكرامة، فانه لا يستطيع التفكير. فنحن لا نجد في التاريخ أن مجتمعا مضطهدا مستعبدا استطاع أن يصل بفكره الى نتيجة، وحتى لو افترضنا أن هذا المجتمع قد فكر وخطط وابدع ووضع البرامج وكانت برامجه هذه من افضل البرامج، ولكن هل يستطيع ان يطبق هذه البرامج؟ إن الانسان لا يفكر إلا إذا عرف أن وراء تفكيره نتيجة، ومن هنا فان الثقة بالنفس وبالمستقبل، والايمان بالحرية والكرامة، والاستعداد للتضحية من أجلهما، إنما هي شروط مسبقة للتفكير. وفي اليوم الذي نكتشف فيه اننا واثقون من انفسنا، ومن القدرات الهائلة التي وهبها الله تعالى لنا، ومن اننا مستعدون للتضحية من اجل الفكرة التي نؤمن انها فكرة حقّة، فحينئذ سوف يكون بإمكاننا التفكير، والوصول الى شواطئ

الابداع والاكتشاف، والفهم الصحيح للحياة، والتمتع الصحيح بها. ترى كيف نستطيع ان نخلق هذه الثقة؟ فمن يقول اننا عقلاء ومفكرون وقادرون على الابداع ونحن الى الان عاجزون حتى عن صنع المصباح اليدوي، وجهاز التسجيل وغيرهما من الآلات البسيطة التي نستوردها من الخارج، والسبب في ذلك هو بالتأكيد عدم قدرتنا على ممارسة التفكير.

إنَّ اوضاعنا في هذا المجال مزرية ومتردية الى درجة اننا عندما نحصل على رخصة قيادة السيارة فكأنما حصلنا على شهادة الدكتوراه في علم الذرة، في حين انها ليست إلا القدرة على استخدام الآلة التي اخترعها الآخرون، والذين يحاولون جهد امكانهم تكريس حالة الجهل والتخلف والالتكالية فينا من خلال الاعلان عن صنع سيارات او آلات اخرى سهلة الاستعمال؛ أي أنَّها مصنوعة خصيصاً للمجتمعات المتخلفة التي لا تعرف التفكير!

قدرتنا على التقدم

ومع ذلك فاننا بشر لا نختلف مطلقاً عن اولئك البشر الذين استطاعوا ان ي اخترعوا ويبتكروا تلك الآلات الحديثة. فنحن نملك من المواهب والاستعدادات ما يمكننا من الوصول الى هذا المستوى، ونحن لم نسقط في مستنقع الجهل والتخلف إلا عندما تركنا التفكير، ووضعا ادمغتنا في خانة الاهمال. وإذا ما حاولنا استغلال هذه القدرات والمواهب فاننا سنستطيع من الآن فصاعداً ان نغيّر المعادلة لصالحنا.

إنَّ علينا ان ندرك في هذا المجال أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس طبقات؛ طبقة الاوروبيين البيض التي تقود وتحكم العالم، وطبقة



الملونين الذين عليهم أن يكونوا مستعبدين. فهو عز وجل خلق الناس شعوباً وقبائل بهدف التعارف فيما بينهم. يقول عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾^١.

كما أنه خلقهم سواسية كاسنان المشط، كما يصرح بذلك الحديث الشريف المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام): «النَّاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ»^٢. وكما يقول الحديث الشريف المروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «كُلُّكُمْ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»^٣.

وعلى هذا فان الثقة بالنفس وبالعقل هي بداية مرحلة التفكير، فعلى كل واحد منا ان يثق بنفسه وعقله، ولنحاول ان نجرب هذه الثقة. وعندما يصل تفكيرنا الى نتيجة فعلينا ان نعرف ان تفكيرنا كان سليماً، وحينئذ من الواجب علينا ان نكتف ونزيد من تفكيرنا لكي ندخل المراحل الجديدة الاخرى، وتنتفتح أمامنا الآفاق الابداعية الواسعة.

عقبات التفكير

إنَّ العقبات التي تعترض طريق التفكير كثيرة، ومن أبرزها ظاهرة قلة المطالعة، وضعف الاطلاع على المعلومات والابحار الجديدة. والمطالعة قد بلغت في العصر الحديث درجة من الاهمية والضرورة بحيث إننا نستطيع أن نقول إنَّ الذين لا يمارسونها في عصرنا الراهن عليهم أن لا يعيشوا، وان يحسبوا انفسهم في عداد الاموات. فعصرنا هذا هو عصر العلم والمعلومات، والعلم لا يمكن أن يُعرف إلا من خلال

١- سورة الحجرات، الآية: ١٣.

٢- بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٥١.

٣- بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٨٦.

القراءة والمطالعة، ومن الافضل للانسان الذي لا يطالع أن يموت، أو أن يبتعد عن المجتمع ليعيش لوحده في صحراء من الصحاري، او غابة من الغابات.

وعندما لا يقرأ الانسان فانه سيجهل كل شيء، وللاسف فاننا نشترى الكتب بالاثمان المرتفعة، ولكننا لا نعلم الى مطالعتها، بل نجعلها زينة وديكوراً لبيوتنا ومجالسنا!

وبناء على ذلك فان من المتعين علينا أن نقرأ، وأن تكون قراءتنا من النوع المكثف، وقد يعترض البعض مدعياً انه يمارس القراءة، ولكنه في الحقيقة لا يقرأ، أي انه لا يعطي القراءة حقها، والدليل على ذلك قلة ما قرأناه في حياتنا لحد الآن، وحتى لو قرأنا العشرات من الكتب فان هذا العدد يعتبر ضئيلاً بالقياس الى اهمية المطالعة، وكثرة وغزارة ما يصدر من الكتب في عصرنا الراهن. فنحن علينا ان نقرأ المئات بل الآلاف من الكتب، وهذه هي المطالعة الحقيقية.

إن مجرد مطالعة بعض الصفحات في اليوم الواحد لا يكفي، بل علينا ان نكتشف من مطالعاتنا، وفي نفس الوقت ينبغي علينا ان نقضي على آفة سرعة المطالعة بحيث لا ننتفع من الكتاب الذي نطالعه، ونمر عليه مرور الكرام.

الحوار سبيل تكامل التفكير

إن الحوار هو السبيل الوحيد الى تكامل التفكير، والحوار يمثل مفردة أساسية في حياتنا يجب ان نضحي بالكثير من المفردات الأخرى في سبيل تحقيقها، والحوار يعني القدرة على أن نكتسب علوم الآخرين ومعلوماتهم وما توصلوا اليه لنضيفها الى علومنا، ونصنع من خلال ذلك



تركيبة علمية متكاملة، وهذه القدرة هي من الامور الرئيسية التي يجب ان نكتسبها في حياتنا.

إنَّ البعض من الناس لهم آراؤهم الخاصة، وهم يتصلبون على هذه الآراء، ويتشبثون بها وكأنها منزلة من السماء، وقد روي عن الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة أنَّه كان يقول: إنَّ الرجل كلَّ الرجل هو الذي يتنازل عن رأيه عندما يراه مغلوطاً. وفي مقابل هؤلاء هناك اناس متميعون في مواقفهم وآرائهم الى درجة انهم يتنازلون عن مواقفهم وآرائهم بمجرد أن يروا الآخرين يتنازلون عنها، وفي هذا المجال يروي لنا التاريخ قصصاً طريفة من ضمنها ان حاكم نيسابور كان رجلاً ظالماً مستبداً ومتصلياً في آرائه، وفي يوم من الايام قال لخدمته: ما رأيك لو نأكل اليوم باذنجاناً؟ فقال له الخادم: انها أحسن اكلة في هذه الايام، فالجو بارد، كما ان هذه الايام هي موسم الباذنجان ... وهكذا استمر الخادم في تعداد مزايا الباذنجان. بعد ذلك غيّر الحاكم رأيه وقال: ما رأيك لو نأكل القرع؟ فما كان من الخادم إلا أن قال: نعم الافضل ان نأكل القرع، لأنَّ سعر الباذنجان مرتفع، وموسمه ليس في هذه الايام، كما ان طبخه يكلف كثيراً ... فتعجب الحاكم وقال: عجيب أمرك، قبل قليل كنت تمدح الباذنجان، والآن تذمه؟ فأجاب الخادم: سيدي، أنا خادم حاكم نيسابور ولست خادم الباذنجان!

إنَّ البعض من الناس مثلهم كمثل هذا الرجل، فهم يبادرون الى التنازل عن آرائهم بمجرد ان يصادفوا شخصاً يقاوم هذه الآراء.

استماع القول واتباع الاحسن

وبالطبع فاننا نرفض النوع الذي يتميع في آرائه، كما لا نؤيد في

نفس الوقت ذلك الذي يتعنت ويتصلب فيها عناداً وبغير دليل. فهما ليسا انسانين مستقيمين، بل إنّ الاستقامة تكمن في الطريق المعتدل، والذي يتمثل في أن تستمع الى آراء الآخرين استماعاً واعياً؛ أي إنّ تنتبه الى آرائهم والى جميع العناصر المكونة لها، ثم تمنع النظر كثيراً في آرائك لكي يتسنى لك فرز العناصر الخبيثة من العناصر الطيبة في رأيك وفي آراء الآخرين، ثم تقوم بعد ذلك بعملية المزوجة بين العناصر الطيبة البناءة من خلال تبسيط وتجزئة الافكار، ونبذ الباطلة جانباً، والأخذ بالصحيحة.

والى هذا المعنى يشير قوله عزّ وجل:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^١.

فهو تعالى لا يوصي بالاتباع مباشرة، فهذا النوع من المواقف مرفوض يدل على أنّ صاحبه لا يملك الاستقلالية في الرأي، ولا يتمتع بالابداع في التفكير، كما انه تعالى لا يأمر بالرفض مباشرة لانه نوع من التصلب والتحجر، بل يقول: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

ويعتبر الفيلسوف والعالم الغربي "ديكارت" مفجر الحضارة الحديثة، وقد كان أهم ما جاء به متمثلاً في منطقته الذي ما يزال يدرّس الى الآن في جامعات اوروبا، ومن خلال التفكير العميق في بنود منهجه المنطقي لا نلبث أن نكتشف أنّ الله تعالى قد ضمنها في الآية السابقة التي تؤكد على أنّ العلم الحقيقي المفيد انما يكتسب من خلال الانفتاح على افكار وآراء الآخرين، والأخذ بها ان كانت ايجابية وبناءة؛ اي من خلال فتح الحوار البناء مع الآخرين، وتبادل وجهات النظر معهم.

وبناء على ذلك فإنّ المنفعة الأولى التي يكتسبها الانسان من

الآخرين هي عقد الحوار معهم، ومعرفة طريقة هذا الحوار، ونحن سواء كنا طلاب علم أم منتمين الى أئمة شريحة اجتماعية اخرى علينا ان نهتم بتنمية قدرة الحوار في انفسنا، وأن نطبق برنامج الحوار المتكامل بأن يطرح كل واحد منا فكرة معينة لنقوم بصقلها ومناقشتها لكي تتحول الى بند من بنود العمل الرسالي.

وعلينا في هذا المجال ان نحرص على ان تسود حوارنا الايجابية، والهدوء، والتفاهم المتبادل، لا أن نحوله الى جدل وتعنّت في الآراء وتشبث بها، فمثل هذا النوع من الحوار لا يمكن ان يتمخض عن النتائج المرجوة منه.

وخلاصة القول فان التفكير من شأنه ان يفتح أمامنا ابواباً وآفاقاً جديدة، وان علينا ان نكتسب صفة التفكير من خلال:

١- الثقة بالتفكير.

٢- المطالعة المستمرة والمتواصلة.

٣- التكامل الفكري من خلال تنمية القدرة على الحوار.

الفصل الثاني

الثقافة بين الأصالة والتطوير

العقل هو الميزة التي يتمتع بها الانسان، فاذا احتجب العقل وانحرف عن مساره الصحيح فان الانسان سوف لا يفقد ميزته هذه فحسب، وإنما سيهوي ايضاً الى الدرك الاسفل؛ والسر في ذلك يكمن في ان هذه الميزة التي وهبها الله تعالى للانسان جُعِلَتْ في مقابل ميزات اخرى سُلِبَتْ منه، فالانسان لا يستطيع الطيران كالعقاب، وليس بإمكانه الجري بسرعة كالغزال، وهو لا يمتلك جسداً كجسد الفيلة والحيتان، ولكنه بدلاً من كل ذلك يمتلك العقل، وبهذا العقل يمكنه التغلب على جميع تلك الأحياء، بل وعلى ما هو اضعف واقوى منها كالجبال الشامخة، وأعماق المحيطات، وأغوار الفضاء المترامية.

فالعقل - إذن - هو الذي يميز الانسان عن سائر الأحياء، فاذا فقد هذا العقل فقد امتيازه عن الحيوانات، وفقد إلى جانب ذلك خصائص وميزات أخرى ليصبح اضعف حتى من سائر الحيوانات، ولذلك فان الله تعالى حينما يحدثنا عن أولئك الذين فقدوا العقل فانه لا يكتفي بوصفهم انهم كالانعام، وإنما يضيف الى ذلك بل أضل سبيلاً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^١.

١ - سورة الفرقان، آية: ٤٤.

الثقافة أهم نتائج العقل

وهنا لابد أن نتوقف قليلاً لنحدث عن أهم إفراز ونتاج للعقل ألا وهو (الثقافة). فالثقافة تمثل الخطوط العريضة لعقل الانسان، فهي الاستراتيجية الفكرية الواضحة لهذا العقل، وعلى هذا الاساس فان الثقافة هي أهم وأبرز مفردات ومفاهيم العقل.

ونحن كثيراً ما نتحدث عن العقل وكثيراً ما نبحت في مفردات جزئية مما يفرزه العقل، فتحدث عن سلوكنا، وعن أخلاقنا، وعن أحكام وقوانين نطبقها، ومع ذلك فان الحديث عن الثقافة هو حديث ساذج وبسيط عادة في أجوائنا، في حين ان الثقافة تمثل أرضية السياسة، وهي قاعدة الأخلاق، ومنطلق المنهج الفكري، وهي بالتالي الأساس الذي تُبنى عليه سلوكيات الانسان وقوانين الحياة.

وقد اشار القرآن الكريم الى (الثقافة) في سياق آياته معبراً عنها بـ "البصائر"؛ اي الرؤى، او مجموعة الافكار والتصورات والمفاهيم التي تمثل الارضية لنمو سائر الافكار، والسلوكيات، والقيم.

نحن والثقافة

ومع ذلك فان الحديث عن الثقافة في اوساطنا لم يحظ بالاهمية التي يستحقها، والسبب في ذلك انه حديث صعب متشعب نخشى اقتحامه، لانه ذو مزالق كثيرة، فنحن عادة لا نهتم بالمفردات الفكرية الصعبة، لاننا نتحاشى الخوض فيها والتحدث عنها، ولعل أهم أسباب تخلف الامة الاسلامية هو انها لا تتحدث عن الثقافة، ولا تطرحها في اجوائها طرْحاً موضوعياً، ولذلك نجد امتنا الاسلامية متورطة في مجموعة ثقافات غير أصيلة، أو مجموعة أفكار تقتبسها من الغرب او الشرق دون أن

تعرف ماذا تعني هذه الافكار، وما هي التأثيرات التي تتركها في حياتها. فحين عندما نقرأ صحيفة أجنبية أو كتاباً أو نستمع الى الاذاعات وعندما نجلس امام شاشة التلفزيون لنشاهد فلماً ما، لا يخطر على بالنا ان منتج هذا الفلم ينطلق في صياغة فلمه من ثقافة معينة، ولناخذ - على سبيل المثال - افلام الكارتون التي يستغلها منتجوها لبث ثقافة ورؤى معينة في الأطفال، فعندما يجلس ابنك امام شاشة التلفزيون ليشاهد هذه الافلام فانه سينجذب اليها، وينشد نحوها من حيث لا يشعر، وبذلك يتأثر برؤاها وثقافتها بشكل لا شعوري، فمن خصائص الفنان او المخرج او كاتب السيناريو ان لا يدعك تفهم ما يريد ان يقوله، فهو يوحى اليك بأفكار معينة، ويجعلك تؤمن بهذه الافكار دون ان تشعر. فلنسأل انفسنا؛ ترى من اين جاءت الثقافة الغربية التي تأثر بها شبابنا الى حد اننا نرى ان الاوضاع قد انقلبت رأساً على عقب في بلادنا، في حين اننا مشغولون بأفكار بعيدة عن واقعنا؟

ولإيضاح ذلك لنضرب مثلاً من واقع حي نعيشه؛ نحن - مثلاً - بصفتنا مسلمين، ونمتلك قيمةً فاضلة، نحترم الكبير، فعندما يأتي الكبير فان الباقيين يفسحون له المجال، ويحترمونه، ويجلسونه في امكنتهم، وحينما تريد مجموعة دخول باب ترى الصغير يقدم الكبير، والجاهل يقدم العالم، واذا كانت هناك امرأة ضعيفة نرى المجتمع يسارع الى مساعدتها، هذه هي ثقافتنا في جانب من جوانبها، وقد استوحينا هذه الثقافة من تقاليدنا وتاريخنا وتراثنا.

وازاء ذلك نرى هناك (ثقافات) غير اصيلة اقتبسناها من الافلام والاعلام الغربي من مثل التسابق في الشوارع، وقيادة المركبات بسرعة جنونية، وكأن شوارعنا حلبة للسباق. ونفس الكلام يمكن ان يقال حول

ظاهرة الاهتمام بتوافه الامور، من مثل ذلك الرجل الذي جاء الى الامام الصادق عليه السلام ليسأله عن طول الحور العين وعرضهن، فنهاه الامام عن الخوض في مثل هذه الامور، وأمره بان يكتفي بالالتزام بالصلاة لكي يحصل على الحور العين.

نتيجة الثقافة هي المهمة

فلنبحث عن النتيجة، ولندع مثل هذه النقاشات، التي هي مجموعة قضايا شغلنا انفسنا بها دون جدوى، في حين اننا لم نهتم بالقضايا الاساسية، ولم نعر اهمية الى الثقافة الحقيقية التي يشتمل عليها القرآن الكريم الذي لا يمكننا الاستغناء عنه في اي مرحلة من مراحل حياتنا، فهو يحتوي على الافكار الاصيلية والضرورية لحياتنا، والأحاديث الشريفة تولت مهمة تفسير القرآن، وايضاحه، وبيان تفاصيل الحياة من خلاله، والأحاديث تشكل الجزء الثاني من الثقافة الاسلامية، كما أنَّ التاريخ الاسلامي الاول، وسيرة المعصومين عليه السلام والصالحين يوضحان هما الاخران القرآن الكريم، فمن الأولى بنا ان نستهدي بها. وهذا هو الجزء الثالث من ثقافتنا الاسلامية. واما الجزء الرابع فيتمثل في ضرورات العصر، فهناك ثقافة غير مرتبطة بالوحي بل بالعقل، لانه الحجة الالهية على الناس كما اشار الى ذلك الائمة عليه السلام في احاديثهم من مثل قولهم:

«إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»^١. و«لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقْدِفُهُ

اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ»^١.

إذن فهناك ثقافة مستوحاة من العقل تؤكد مصلحة الانسان. فالله تعالى يطلب منك ان لا تقوم بالعمل الذي يسبب لك ضرراً، وعلى سبيل المثال هل يجوز للمصاب بالكوليرا ان يخالط الناس؟ العقل يجيبنا بالنفي، وهل يجوز لنا مخالفة قوانين المرور؟ طبعاً لا، لأنَّ عقولنا تحكم بان النظام ضروري للحياة.

لابد من ان نطور ثقافتنا

وعلى هذا الاساس فان الحياة تتطور، ولذلك لابد ان نطور ثقافتنا أيضاً حسب تطور هذه الحياة، أما بالنسبة الى الثقافة المرتبطة بالقرآن فانها ثابتة من مثل العدالة الاجتماعية، والحرية، والملكية وما الى ذلك، كما يشير الى ذلك الامام الباقر (عليه السلام) حيث قال:

«قَالَ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ، حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^٢.

وإزاء ذلك هناك أمور تتطور مع الظروف، وهي بحاجة الى من يستنبطها ويحددها، وانا - كمسلم - يجب ان ابحث عنها لأعرف كيف يجب ان اعيش في هذا العصر، وللأسف فان من الامور التي لا نهتم بها هو معرفتنا لواجبنا في هذا العصر، فلا نعرف الى اين وصلت الدنيا، فالطغاة والمستكبرون يجتمعون هنا وهناك ليخططوا لبلادنا، ولكننا لا نهتم بمعرفة ماذا يخططون، في حين انهم يحسبون حساب لبلادنا الاسلامية ويخططون لها حسب مصالحهم، اما نحن فلا نهتم بالسياسة، ولا نغير اهمية للعالم.

١ - مُنْبِئَةُ الْمُرِيد، ص ١٦٧.

٢ - وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٦٩.



إنَّ الثقافة العصرية، الثقافة التي ترسم لنا حياتنا وما ينبغي ان نفعل هي قضية اساسية، اما بقية القضايا فهي ثانوية لا تستحق ان نغيرها اهمية كبيرة، فعلينا - اذن - ان نترك الخوض في الامور الثانوية، ولنواجه الزحف القادم الينا من المستكبرين؛ فبلادنا محطمة، واوضاعنا متخلفة، وان مثل الانسان الذي يشغل نفسه في توافه الامور وينشغل عن قضاياها الاساسية كمثل الشخص الذي تلتهم النيران بيته ثم يأتيه شخص آخر ليحدثه عن قصة مجنون ليلي، بدلاً من ان يبادر الى اطفاء النار.

مثل هذا الشخص يشارك - في الحقيقة - في حرق البيت لانه سيلهيك عن مشكلتك الحقيقية، وهناك اناس في المجتمع يلهوننا ويجعلوننا نعيش بعيدين عن اوضاعنا، وعن قضايانا الرئيسية، ومشاكلنا اليومية، عن اقتصادنا وسياستنا واخلاقنا وثقافتنا وثقافة ابنائنا، ليجعلونا نضرب اهتمامنا في قضية من القضايا الثانوية، وفي موضوعات بعيدة عن وقائع الحياة اليومية وعن حاجاتها.

وكما حدثت هذه الحالة في بلادنا فان هناك بلداناً اخرى عاشت مثل هذه الظروف ولكنها خرجت منها، واستطاعت ان تكتشف اخطاءها، لتبرمج لحياتها من جديد، اما نحن فبقينا على تخلفنا.

ويبقى القرآن الكريم المصدر الرئيسي لتشريعنا، وافكارنا، وثقافتنا، واخلاقنا، وقيمنا، وعلينا أن نستمع جميع مفردات ثقافتنا من القرآن، فالمشاكل التي نعاني منها منشأها ابتعادنا عن القرآن الذي يقول عنه الخالق تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^١. فهذه الثقافة مستمدة من الله، فلنتشبع بها، ولنتمثلها في حياتنا، ولنستهديها في مسيرتنا الحياتية.

الفصل الثالث

الثقافة بين الثوابت والمتغيرات

من خلال نظرة بسيطة وخاطفة نجد أنَّ أية حركة لابد ان تدور حول محور ثابت، كما أنَّ العلاقة بين الحركة والثبات والمتحرك والثابت علاقة اصيلة، وهذه العلاقة قائمة فيما يتصل بالثقافة والفكر، والقيم والاخلاق، والنظرية والتطبيق. فكل حركة ثقافية لها جانبان: الجانب الثابت الذي هو بمثابة المحور، والجانب المتحرك الذي يشبه الى حد بعيد الاطار الذي يدور حول هذا المحور.

وعندما ننظر الى تاريخ الثقافات نجد ان الثوابت فيها تتواصل بين جيل وآخر؛ وبين أمة واخرى، في حين ان المتغيرات هي التي تتطور وتتغير من جيل لآخر، ومن منطقة لاخرى، وبالتالي من عصر الى عصر آخر. والمشكلة الرئيسية التي تعاني منها بعض الامم عدم وجود حالة التوازن والتعادل بين الثوابت والمتغيرات. وعلى سبيل المثال فان الأمم التي عارضت وناهضت الرسائل السماوية كانت كل مظاهر حياتهم تعتبر من الثوابت، فلم يكونوا يؤمنون بالمتغيرات حتى في ملابسهم، وطريقة كلامهم، وعاداتهم في الحرب والسلم، وعباداتهم، وطقوسهم، فكانت جميع هذه المظاهر تعد عندهم من المقدسات والثوابت التي لا تقبل التغيير، ومثل هذه المجتمعات كانت مجتمعات متحجرة، ولذلك



فانها عندما واجهت التغيير والتطوير إنهارت، لانها لم تكن قادرة على امتصاص الصدمة.

وهكذا الحال بالنسبة الى أي مجتمع جاهلي آخر، فإنَّ ثوابته اكثر من متغيراته، ولذلك نجد ان مثل هذا المجتمع سرعان ما ينهار ويتحطم مع اول مواجهة مع الصعوبات.

ان نفس هذه الظاهرة ما زالت سائدة في مجتمعاتنا، ولتوضيح ذلك نضرب مثلاً من واقع التعليم الديني في مجتمعاتنا؛ فالتعليم الديني لدينا كان هو السائد، فقديمًا كان المسلمون يتعلمون القرآن ثم الفقه والتفسير والحديث، وقد كان هذا هو مجمل التعليم السائد في مجتمعاتنا، فلم يكونوا يهتمون بطلب العلم في الأمور الحياتية الأخرى التي حرَّض عليها الإسلام، في حين ان العالم قد تطور، ودخلت التعليم حقول جديدة مثل حقل التربية والاجتماع وعلم النفس والطب والاقتصاد والسياسة ... ولكن الاجهزة التعليمية في بلداننا الاسلامية بقيت تابعة وذيلية.

وعندما دخلت الثقافة الغربية بلادنا بكل معطياتها وتطوراتها شعرت اجهزتنا التعليمية انها لا تستطيع ان تواجه النظم المعقدة والواسعة، ولذلك فانها انهارت لانها كانت متحجرة لا تمتلك من المرونة والقدرة على استيعاب التطور ما يمكنها من التكيف مع ذلك التطور الهائل الذي حدث في العملية التعليمية، بل والتفوق عليه من خلال منافسته وتحديه. وفي المقابل فاننا نجد مجتمعات اخرى نستطيع ان نصفها بانها مجتمعات (متمiece)؛ اي ان متغيراتها اكثر من ثوابتها، مثل بعض المجتمعات الاوروبية، وبالتحديد المجتمع الاميريكي الذي يفتقر الى الثوابت الضرورية لان يكون المجتمع رصيناً ومتيناً على ضوئها. فهناك مجموعة متكاملة من القيم الثابتة لابد ان يقوم المجتمع على

اساسها، وإذا ما تعرضت هذه القيم للتغيير والتحوّل فلا بد من ان يواجه المجتمع صدمة تنعكس في افرازات سلبية مثل الاباحية، وتفكك العلاقات الاسرية.

ان من الخطير جداً ان لا تكون للانسان مقاييس لمعرفة الثوابت وتمييزها عن المتغيرات، وفي الحقيقة فان هذه الظاهرة هي أخطر حالة من الممكن ان يعيشها المسلمون، ومن أهم وظائف المشروع الحضاري الديني لمجتمعاتنا في العصر الراهن فرز هذين النوعين من القيم؛ اي القيم التي ينبغي ان تكون ثابتة، والقيم التي ينبغي ان تكون متغيرة.

النظرية الاسلامية

ان القيم الاسلامية تعتمد بدورها على هذه النظرية؛ فالاسلام يقرر ان هناك قيمة ثابتة لا يمكن ان تتغير، تتمثل في وجود الخالق تعالى الذي هو باق أبدي سرمدي، وان كل ما يتصل به تعالى هو أيضاً ثابت، وكل ما اتصل بالخلق فهو متغير. فكل شيء هالك إلا وجهه، وكل شيء فان. والذي يبقى ويخلد هو وجه ربنا ذو الجلال والاكرام.

ان الطبيعة في حالة تغير مستمر، ونظرية التغير والصيرورة في العالم هي نظرية اسلامية اصيلة؛ وعلى سبيل المثال فان القرآن الكريم يقرر ان كل شيء متغير حتى الجمادات. فالانسان يعتقد ان الجبال بضخامتها وصخورها الهائلة ثابتة، في حين ان القرآن يقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾^١، وكأنه يريد ان يفهمنا ان نظرنا الى الحياة، والطبيعة، والمجتمع، والى اي حقل من حقول الحياة يجب ان

١ - سورة النمل، الآية: ٨٨.

تنبع من مبدأ التغير في الطبيعة.

النظرة الثابتة هي المسؤولة عن السلبيات

ولعل هناك من يتساءل قائلاً: وما الضير في ان تكون نظراتنا ثابتة؟ هذا في حين اننا عندما نتدبر في حياة الانسان، وبالذات في حالاته النفسية نجد ان النظرة الثابتة الى الحياة هي المسؤولة عن الكثير من الاخطاء الفكرية والنظرية لدى الانسان.

ومن اجل ان نوضح هذه الفكرة لنضرب مثلاً من عالم الاخلاق، وآخر من عالم السياسة، لان حديثنا يتصل في الواقع بالقضايا الاستراتيجية الهامة، والخطوط العريضة.

فمن واقع الاخلاق نجد ان الانسان الذي يزعم - مثلاً - ان صحته ثابتة ستعترى حياته اشكالتان هما؛ أولاً: انه سوف لا يشكر الله - تبارك وتعالى - على نعمة الصحة، ثانياً: سوف لا يحافظ عليها استناداً الى اعتقاده أنها ثابتة، فتراه لا يبحث عن العوامل التي ادت الى صحته، ولا عن العوامل التي تسبب مرضه.

إنّ عوامل الصحة والمرض متغيرة، وإيمان الانسان بهذه العوامل المتغيرة سيدفعه الى ان يحافظ على عوامل الصحة.

اما المثال الذي اريد ان اضربه من عالم السياسة فيتمثل في تساؤلات من مثل: من هو المسؤول عن بقاء الانظمة الفاسدة؟

للجواب عن هذا السؤال نقول: إنّ السبب الرئيسي هو النظرة الجامدة تجاه السلطة. فالانسان يعتقد بأنّ السلطات باقية، في حين ان الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^١، والايام

هنا تعبير عن السلطة، والله عزَّ وجلَّ أبت سنته ان تبقى جماعة حاکمة الى الأبد، وبناء على ذلك فان الانسان ليس هو السبب في اسقاطها، بل ان لها اجلاً معيناً.

وهكذا فان مسؤولية بقاء الانظمة الفاسدة قائمة على أساس النظرة الشيئية والجامدة الى هذه الانظمة. فالنظام مثله كمثل كرسي قائم على قواعد، فما دامت القواعد موجودة فان النظام موجود ايضاً، اما اذا انهت هذه القواعد فان النظام سينهد ويسقط ايضاً.

من هنا اذا أردنا ان نحظى بثقافة الحياة، لا مناص لنا من ان نوازن بين الثوابت والمتغيرات في عناصر الثقافة.

الفصل الرابع

الثقافة في خدمة النهضة

جدل قديم ومتجدد بين علماء الاجتماع والفلاسفة، حول دور الثقافة في حياة الأمم أ هو دور التابع أو المتبوع؟ يقول علماء الاجتماع: إن تطورات الحياة خاضعة لِسُننٍ معينة، هي التي تقودها بصفة حتمية من مرحلة إلى أخرى، وفي كل مرحلة تخضع جميع مناحي الحياة ومنها الثقافة لمجموعة سنن خاضعة لاستراتيجية المرحلة بصورة حتمية.

والثقافة عند الاجتماعيين، بعض النجوم التي تدور في أفق السنن الاجتماعية المحتومة.

ويذهب الشاعر العربي الى هذه الفكرة حينما يقول:
السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ في حَدِّه الحُدُبين الجدَّ واللَّعبِ
فالسيف عند الشاعر أبي تمام لا يعدو أن يكون علامة لظاهرة اجتماعية هي الحرب، وهو الذي يحدد وجهة الثقافة التي تتمثل في الكتاب.

وحتى الفلسفة، يعتقد علماء الاجتماع أنها بعض الافرازات الاجتماعية التي تدل على مرحلة معينة من أدوار المجتمع. فمثلاً: فلسفة الثورة في أوروبا، لم تكن سوى ظاهرة واحدة من ملامح القرن



الثامن عشر لمجتمع الثورة الذي أفرز هذه الظاهرة.
هكذا يعطي الاجتماعيون الاهمية للاجتماع بينما يجر الفلاسفة نار
الاهمية الى قرصهم فيقولون: إِنَّ العامل الحاسم في حياة الشعوب إنما
هي ثقافتهم، فهي التي تحدد وجهة المجتمعات، وتصبغها بلون الثورة
أو الجمود، العلم أم التقليد، الحضارة أو التخلف.

يقولون: ما هو المجتمع؟ ليس سوى الافراد. ثم كيف يدير الافراد
شؤونهم بارادتهم؟ ولكن كيف يختلفون في الارادة؟ أليس لانهم
يحملون ثقافات مختلفة؟

إذاً فالثقافة رائدة الحياة. وهكذا يختلف الرأي في أَنَّ الثقافة أم سُنن
الاجتماع هي التي تقود حياة الأمم؟

وقد تنامي الشعور بخطورة دور السُنن الاجتماعية في قيادة الثقافة
وتوجيهها في العصر الحديث، حتى تسنم علم الاجتماع بفروعه العديدة
قمة العلوم الحديثة.

ولكن بالرغم من ذلك فان أنصار الثقافة لا يزالون يتمتعون بنفوذ
واسع في الاوساط العلمية.

وخطورة هذا الجدل يأتي من ارتباطه المباشر بقضايا الامم المصيرية،
سواء كانت متقدمة أو متخلفة. فالشعوب المتخلفة لا تفكر بالتقدم إلا
ويصدها هذا السؤال: ما هو العامل الحاسم في تقدم الامم، الثقافة الحيّة
أم السُنن الاجتماعية القوية؟ فإذا كانت الاولى بدأنا بها وإن كانت
الاخري فلا بد من إنتظار أمرها؟

بينما الشعوب المتقدمة تخشى التخلف وتفكر في تجنب الموجبات
النهائية له.

والواقع: إن الثقافة رائدة ووليدة. فهناك ثقافة رائدة تفجّر طاقات

الإنسان، وتبعته مجتمعاً حياً نشيطاً، وهناك ثقافة تولد مع هذا الانفجار كواحدة من افرازاته العديدة، وهذه ثقافة وليدة حياتها مرتبطة بحياة المجتمع وطاقاتها محدودة بقدرة الأمة.

وكالشمس حينما تتربع السماء تكون أشعتها أكثر دفئاً وأشد ضياء عما إذا آلت إلى المغيب، كذلك المجتمع ساعة إنطلاقه تكون ثقافته الوليدة أبهى واسمى من ساعات انهياره.

وفي تاريخنا الاسلامي تبدأ أمتنا في ساعة نزول القرآن الحكيم، حيث كانت ساعة الانفجار الضخم لنا وكانت شمسنا في رابعة السماء. والثقافة القرآنية كانت الرائدة التي ولدتنا، وهي بالتالي كانت "فكرة الحضارة" التي فجّرت طاقات الإنسان في الجزيرة العربية.

وإشعاع هذه الثقافة تمثّل في ثقافة الجيل الاول الذي تلقى الوحي من مهبطه الصافي، وبالرغم من سمو ثقافة الجيل الاول، فانها كانت وليدة المجتمع الاسلامي ومن موحياته الخيرة.

وحينما هبطت الحياة الاجتماعية، هبط مستوى الثقافة الوليدة المستوحاة منه وتمثلت في ثقافة الأمة التي انطبعت بطابع الحياة الاجتماعية تماماً.

بهذا نستطيع تقسيم الثقافة الى نوعين: الاول - ما تولد الحضارة، الثاني - ما يتولد منها، ويرتبط في مسيرته مسيرة الحضارة وهي واحدة من افرازاته المختلفة.

وعلى الامم الناهضة التفتيش عن الثقافة الرائدة، لتوظيفها في حياتها حتى تستطيع أن تقوم بدور الديناميت لتفجير طاقات الانسان الحضارية، ولكن كيف نتعرف على هذه الثقافة حتى لا تتشابه علينا وتضيع النهضة بينها؟.

الفصل الخامس

ملامح الثقافة السليمة

من الطبيعي أننا لا نستطيع الاطمئنان الى سلامة جسم شخص دون إجراء كافة الفحوصات الطبية، وتحقيق جميع الاختبارات في التحليلات لتؤكد لنا عن خلو الجسم من أي مرض وأي ميكروب قد يسببه في المستقبل.

كذلك لا نضمن سلامة الثقافة إلا بعد التأكيد من خلوها من الامراض بل ومن بذورها الخفية.

إذن فلنبحث عن مقاييس تكشف لنا عن الامراض الثقافية قبل ان نحاول تحديد ملامح الثقافة السليمة، فما هي هذه المقاييس؟

كيف نكشف المرض الثقافي؟

هناك طريقتان في الطب الحديث لكشف المريض الجسدي: طريقة التحليل، وطريقة الملاحظة.

وفي طريقة التحليل ينبغي ان نجزئ الشيء الواحد، الى أصغر وحدة ممكنة، ثم نلاحظ آثار الوحدات، وجمعها وملاحظة النسبة بينها نكشف عن طبيعتها، بينما في طريقة الملاحظة نرجع رأساً الى آثار المجموع دون تجزئته. فمثلاً في حالة إصابة الرأس بوجع شديد، قد

يستخدم الطبيب طريقة الملاحظة فيسأل المريض عن آثار العاهة، ويكشف بها نوعية المرض، بينما قد يستعين بطريقة التحليل في احيان اخرى فيحتاج الاستعانة بالمختبرات، لتحليل دم المريض أو بوله، اذ بدون ذلك لا يمكنه تمييز طبيعة المرض.

وفهم هاتين الطريقتين أمر ضروري لمعرفة المرض الثقافي، إذ قد نكتفي فيه بنظرة موضوعية الى الثقافة كمجموع بينما نحتاج احياناً الى تفكيك الجهاز الثقافي الى جزئيات صغيرة لمعرفة الخلل الكامن فيه.

الملاحظة تكشف زيف المرض

والملاحظة العامة لمجموع الثقافة تستطيع أن تكشف لنا عن ذلك بطريق النظر العام فيها مع طرح دور العوامل الخارجية التي قد تؤثر فيها. إنَّ انطلاقة المجتمع الاسلامي في فجرها الباكر كانت أبرز سمات السلامة في الثقافة القرآنية.

بينما الجمود الذي ساد القرن الرابع بعد الهجرة، هو الآخر سمة بارزة للمرض الثقافي الذي انطوى عليه ذلك المجتمع. وكما أن طيب الزهرة افضل دليل على سلامتها، فإنَّ تقدم المجتمع هو الاخر اظهر دليل على سلامة ثقافته.

ولكن لا يمكن قياس الثقافات الاسلامية المستجدة بما نلاحظه من جمود المجتمعات المسلمة، لأنَّ العوامل الخارجية من استعمار وتخلف ورجعية ذات آثار عظيمة على مجتمعنا الراهن.

المجهر الثقافي

وطريقة التحليل المتبعة في البيولوجيا يمكن اتباعها ايضاً في

الثقافة الاجتماعية، وذلك بتفكيك الثقافة ورصد العناصر المريضة فيها والتي تجمعها باللامسؤولية والالتزام، فتلك الفكرة التي تؤله جهازاً اجتماعياً "كالساسة، أو رجال الكهنوت، أو رجال الاقتصاد" فكرة مريضة، لأنها تشل الإرادة البشرية، وتقتل روح التحدي فيها. وبرز الامثلة الحديثة على ذلك: محاولات الصهيونية شل الإرادة العربية عن طريق بث الافكار التعجيزية عبر اجهزتهم الاعلامية الخاصة، فمثلاً يضخمون قوة اسرائيل حتى يصلوا بها الى حد تصويرها أنها المالكة لقوى العالم كله. ففي كتاب "تحطمت الطائرات عند الفجر" - مثلاً - نجد نموذجاً مفصوحاً للفكرة المريضة التي تحاول الصهيونية دسها في ثقافتنا العامة. اذ يصور الكتاب الاستخبارات الاسرائيلية كأنها عفاريت من جن، تتوغل في كل الاجهزة المعادية وتحطمها، ويستهدف كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" نفس الغاية حين يربط بين جميع تطورات العالم وبين ارادة الصهيونية العالمية.

إن هذه الافكار الجزئية الصغيرة يجب ألا تنفلت من مجهر الراصد الذي يريد تحليل الثقافة الى اجزاء ثم كشف الجرائم المريضة فيها. هكذا نستطيع كشف زيف الثقافة، ولكن ما هي ملامح الثقافة السليمة؟

دفعة عاطفية ومقاييس عقلية

أبرز سمات السلامة في الثقافة قدرتها على توظيف جميع الامكانيات البشرية في خدمة التقدم والرفاه.

فالعاطفة يجب ان تستمر جنباً الى جنب مع العقل، إذ هما اعظم طاقتين في الانسان، بيد أن الثقافة السليمة هي التي تعرف كيف تضع

النفس البشرية في محور متوازن بين العقل والعاطفة، حتى لا يلفها جمود العقل، ولا تقتلها ثورة العاطفة.

والتوجيه الثقافي مسؤول هو الآخر عن مقدار استخدامه لاحدى الطاقتين بحيث لا تطغى على الثانية فتدمر الحياة.

لقد كانت الثقافة الالمانية قبيل الحرب العالمية الثانية مشبعة حتى التخمّة بالعاطفة، فاندفعت في اتجاه خطر، ونشرت الدمار على الارض، بينما كانت الثقافة الفرنسية بالعكس تماماً، فانهارت فرنسا هي الاخرى. ان العاطفة ضرورة بالغة لأمة تواجه خطراً داخلياً او خارجياً، ولكنها ليست كافية، إذ أنها كالمياه المتفجرة اذا لم تجد لها مجاري فانها تتحول الى سيول عاتية، والمقاييس العقلية هي التي تحفر المجاري الضرورية لاستيعاب تفجر العاطفة، ثم توظيفها في الخير والرفاه.

وفي الثقافة الاسلامية منابع عديدة للعاطفة، فقصص الجهاد الاسلامي منذ عهد النبي ﷺ وحتى اليوم، والسير المضئية التي نجدها في التاريخ الاسلامي أفضل مولد للعاطفة لدى الامة، ولكن هل تكفي العاطفة للنهضة الشاملة؟ كلا بل في الاسلام أيضاً مقاييس عقلية دقيقة جاء بها الوحي القرآني الحق، ويتبعها المسلمون جميعاً.

الفصل السادس

المراحل الاربع للثقافة

معروف كيف يموت الحي بيولوجيا: ينقطع عن التنفس فيتوقف عن الحركة. كذلك تموت الثقافة؛ يتوقف فيها نبض الحركة فتتقلص، وتنطوي، وتموت.

وكما يمر الحي بعدة مراحل قبل ان يلفه الموت، كذلك الثقافة تمر بنفس المراحل. فمن مرحلة الصحة والشباب، الى مرحلة الشيخوخة، الى المرض، الى الموت. وفيما يلي نحاول شرح مميزات كل مرحلة.

١ - دور الشباب

تتميز الثقافة الشابة التي لم تزل تحتفظ بكامل قواها الحركية والدفعية بنقطتين اساسيتين:

الاولى: إنَّ هذه الثقافة تبرز دائماً دور "المشيئة" البشرية في تحمل مسؤولياتها الكاملة أمام الحياة.

الثانية: إنها تستوضح للفرد أهدافه البعيدة التي يتطلع اليها، او ينبغي ان يتطلع اليها.

والقرآن الكريم من أبرز وأروع الامثلة التي تجسد روح الثقافة الحية، فهي من جانب تكرر كثيراً من توجيهاته نحو المشيئة الحرة



التي يتمتع بها البشر، وتعطيه جرعات كبيرة من الاحساس بالتحدي إزاء عوامل الحياة الصاغطة.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾^١.

ويقول أيضاً: ﴿فَبِمَا مَدَّ لَا يَعْذِبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾^٢.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٣.

كل هذه الآيات تشير الى دور الارادة الانسانية لعله ينتبه ذاتياً، ويقوم بخلق حياة أفضل.

والقرآن من جانب آخر يقوم بشرح القيم التي ينبغي للانسان ان يتطلع نحو تحقيقها في حياته، ومنطق القرآن في هذا المجال واضح جداً، انما هي دنيا وآخرة، والثانية خير من الاولى، ولكن ينبغي ألا ننسى نصيبتنا منها أيضاً ... إن اهداف البشر لدى الثقافة الاسلامية واضحة جداً، والدعوة الى تحقيقها مؤكدة جداً.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾^٤.

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^٥.

ويقول سبحانه: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا أَمَرَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^٦.

١- سورة النجم، الآية: ٣٩-٤١.

٢- سورة الفجر، الآية: ٢٥-٢٦.

٣- سورة الرعد، الآية: ١١.

٤- سورة القصص، الآية: ٨٣.

٥- سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

٦- سورة القصص، الآية: ٧٧.

٢- دور الشيخوخة

أيام الشيخوخة في الإنسان تزيد صاحبها ضعفاً وتشاؤماً، كذلك أيام الشيخوخة في الثقافة تتسم بضعف القيم الدافعة نحو التقدم والحركة والانطلاق.

في هذه الأيام تلعب السياسات التوافقية التي تنشأ من الاتحادات السطحية دوراً بارزاً في تقرير مصير الأمم، وهذه السياسات ناشئة من لون خاص من الثقافة هي: "ثقافة التوفيق"، وهذه الثقافة خالية من حماس القيم. إنها ثقافة تبحث عن حلول وسط لجميع المشاكل، وتحاول تجنب الأوجه الحادة من الأفكار، وتكرس نشاطها لمعرفة أوجه الوفاق حتى بين النظريات الشديدة التناقض.

وبالرغم من اتسام هذه المرحلة من عمر الثقافة بطابع "العلمية" إلا أن دافعها هو الشعور بالضعف، والبحث عن الراحة. وفي الأمة الإسلامية ترى هذه الثقافة بين جمهرة كبيرة من مؤلفي القرن الثاني الذين ضعف فيهم الاحساس الديني واخلدوا الى الهدوء، باحثين عن الحلول الوسطى.

عند هؤلاء المؤلفين ذهبت روعة آيات القرآن الكريم والروح الحركية الدافعة التي تكمن فيها. من هنا اقتصر تفسير القرآن الكريم على مجموعة بحوث لغوية واعرابية وكلامية عقيمة.

ويكفيك ان تلقي نظرة على أي تفسير من تفاسير القرن الثاني وما بعده حتى تجد فيه الفراغ الروحي والجدل البيزنطي، حيث يتبادل المفسرون الآراء والردود، ويحاربون انفسهم بسيوف من خشب. والغريب أن الكثير من هذا الجدل كان يُستخدم من أجل دعم مركز السلطات الديكتاتورية الحاكمة، او تأييد بعض المذاهب العتيقة بغرض



الحصول على مكاسب سياسية آنية. وكذلك الأمر في المؤلفات التي تتناول التاريخ الاسلامي، حيث يتناول المؤلفون الجانب الجامد من ذلك التاريخ، وهو دفاع مستميت عن بعض الشخصيات التاريخية، دون البحث في تلك "القيم" التي صاغت تلك الشخصيات، وذلك من أجل تكوين شخصيات اخرى مماثلة.

٣- دور المرض الثقافي

لكي نستطيع تحقيق نهضة متينة شامخة لابد ان نتعرف على جرائم المرض التي تهدد الثقافة من اجل القضاء عليها الان والتحصن ضد تجددتها في المستقبل.

لقد حددنا العنصر المريض في الثقافة بأنه الذي يدعو الى الاسترخاء والتفرقة والخنوع، ولكن يجب ألا تفوتنا هذه الملاحظة وهي ان دعوة الفكرة المريضة لا تأتي صريحة ومكشوفة حتى نستطيع تحديد أبعادها بسهولة، والصعوبة البالغة تنشأ من اشتراك الالفاظ غالبا بين معنيين؛ احدهما مريض والثاني صحيح، ولذلك فان حاجتنا ماسة الى وضع مقاييس ثابتة لكشف العنصر المريض، وسنأتي على ذكر طائفة منها في نهاية الحديث، اما الآن فسنعرض عدة أمثلة من عناصر المرض في الثقافة، ونستشهد بثقافتنا الاسلامية لانها أقرب إلينا.

الاستسلام للواقع

من عناصر المرض الاستسلام للواقع إعتقاداً بأنه افضل ما كان يمكن حدوثه، ذلك لأنّ هذا الاستسلام يमित التحفز البشري نحو التطوير وتطلعه نحو حياة أفضل، وبالرغم من أنّ الاعتراف بالواقع من

مظاهر الصحة في الثقافة، فإن الرضا به من أسباب المرض. ولكي يكون الاعتراف بالواقع مظهراً صحيحاً في ثقافة الامة، لابد ان يتم بمساوئه ومحاسنه جميعاً. فنؤمن بسيئات الواقع لانه الخطوة الاولى لتغييرها، ونؤمن بحسناته لانه بدون هذا الايمان نسقط في بؤرة اليأس حتى الاذقان، وكثيرون أولئك الذين تعمى فيهم عين الرضا فلا يبصرون سوى السواد والظلام، ولا يشعرون بغير القلق واليأس، هؤلاء الرجال يفقدون القدرة على تطوير الواقع، لانهم فاقدون للأمل بذلك.

بين الخوف.. والرجاء

لذلك، فإن الثقافة الحقة هي التي تعترف بالواقع كله؛ حسناته وسيئاته، لتجعل الانسان في محور الخوف والرجاء، وتدفع به قدماً الى القمة. وفي توجيهاتنا الدينية نجد هذا الحديث المروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقًّا؟» قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: «مَنْ لَمْ يَقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ!». وغريب جداً أن يفسر فريق من الامة بعض مظاهر الصحة في ثقافتنا بطريقة تتحول الى عوامل المرض.

الشكر لله

١- فمثلاً: الشكر لله عمل شريف وواجب، وخلفية الشكر الايمان بما في الواقع من عناصر ايجابية، ويحتوي على شحنة كبيرة من الأمل



بجانب شحنة مماثلة من الخوف، إذ أنه يجعلك تعتقد أنّ النعمة المخولة اليك قد تزول عنك فيما اذا قصّرت في أداء حقها، كما انها تزداد اذا أدّيت حقوقها.

وهذا التوجيه افضل وسيلة ثقافية تفك طوق اليأس عن الفرد من جهة الايمان بوجود النعمة له، وتحصنه ضد الترهل من جهة الاعتقاد بانه ستزول عنه النعمة اذا قصّر في حقها.

ولكن هذا الشكر يتحول الى عنصر سالب في الثقافة عند فريق من أبناء الامة، إذ أنه اصبح لديهم وسيلة للاستسلام للفساد، والخنوع للظلم، وذلك بتركيز النظر الى الجوانب الايجابية في الواقع دون التفكير في الجوانب السلبية منه. من هنا جاءت أمثالهم الخانعة تقول: اليد التي لا تستطيع أن تقطعها قَبْلَها.

ان هذه النظرة الى الشكر بعيدة جداً عن النظرة الواقعية التي دعا إليها الاسلام. فالقرآن الحكيم يقول: ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^١ انه يدعونا الى العمل «شكراً» لا الى الكسل «شكراً»، وهو أروع صيغة للشكر، إذ أنه يركز على أهم عناصره وهو العمل.

الصبر على المكّاره

٢- ومثل ذلك الصبر، إنه يعني احتمال الصعوبات التي يحتاج اليها الجهاد، ولا يعني بحال الخنوع للأذى، وانتظار التغيير الطبيعي. الصبر هو تربية عالية على التضحيات الضرورية من اجل التقدم، الصبر عن الرغبات المستعصية حتى تبلغ النفس تطلعاتها الكبرى،



فالإيمان بالقدر والقضاء جزء من حضارة الانسان، وعامل في سبيل تقدمه، ولكن تلقى الامة لهذا الايمان بشكل معكوس تماماً عاد مبرراً للتقاعس، وطريقاً الى الهروب عن تحمل المسؤوليات، فترى احدهم ينام على أمل الخير الذي يرجو ان يزجيه له القدر، ويستيقظ من خوف الشر الذي يستبطنه له القدر. فأين الارادة وأين السعي، وأين قوله سبحانه:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾^١.

لاحظوا «إلا ما سعى». والسعي عملية ارادية هادفة، ومن دونها ليس للإنسان من الامر شيء. أليس كذلك؟

فلماذا نعكس في تفسير الحقائق؟

إن التوجيه الثقافي الخاطيء هو الذي يحول فكرة القدر من عامل موجب الى عامل سالب، ثقيل الارادة، ويكبت الحرية ويحوّله من سبب للعقلانية في القرار الى سبب للطوباوية والفوضى.

وهكذا تكون الثقافة الاسلامية عاملاً بئاً في سبيل البناء الحضاري ولكنها تنقلب عند الامة المريضة الى عامل سالب ضد كل بناء حضاري.

الفصل السابع

مفارقات ثقافية بين الاسلام والمسيحية

لا نزال في اطار حديثنا المسلسل عن دور الثقافة في نهضة الامم، وقد حددنا بوضوح المرض الذي يتسرب الى الثقافة فيحولها الى عنصر وبيل على الانسان.

وبيّنا طائفة من الامثال المنتزعة من واقعنا الاسلامي، وكيف انقلب فكرنا الديني المتحضر الى فكر متخلف.

والآن نتابع سرد الامثلة الاخرى على هذه الحقيقة بالذات، وذلك لسبب معين هو أنّ بعض الاقلام المريضة والدخيلة تخط بصورة متعمدة ومخططة بين الفكر الاسلامي وبين تفكير المسلمين وتنسب الى الاسلام ما تجده في المسلمين وتخرج بنتيجة باطلة وماكرة هي: ان اولى ضرورات الامة الاسلامية التخلص من الفكر الاسلامي. بينما العكس هو الصحيح، إذ أن الضرورة هي العودة الى الفكر الاسلامي الصحيح ونبذ الافكار الدخيلة التي وفدت الينا مع رياح الغرب او الشرق، ذلك لان الفكر الاسلامي الصافي هو الضمان الوحيد لتفجير نهضة حضارية شاملة فينا.

وهنا ينبغي ان أفف لحظة لأقول: إنّ الاستعمار يدير لعباته بذكاء بالغ. فمثلا يتهجم على فريق واحد من المسلمين من خلال اقلام

مستشرقة مأجورة تنصب نفسها محامية عن الاسلام والمسيحيين ضد هذا الفريق الشاذ (!) ولان المسلمين لا يزالون مختلفين على انفسهم، ولا تزال توجد بينهم حزازات واضغان، فان الاستعمار يهدف من وراء ذلك ان يتعاون سائر المسلمين معه، حتى يتم ذبح الامة على مراحل، وربما بيدها هي.

ومع الأسف، انه ينجح فعلاً في تدبير خطته، وفعلاً يتلقى بعض المغفلين من ابناء الامة افكار الغرب ضد بعض المذاهب الاسلامية، ويحاولون النفخ فيها وينجم من ذلك ضرران:

١. تفرقة المسلمين عن بعضهم، وتقويض الثقة المتبادلة التي نحن اليوم بحاجة ماسة إليها.

٢. نشر الافكار الخرافية بين الامة التي تؤدي الى تخلخل ثقافتهم، وتحطيم صرح فكرهم المتكامل، وقديماً قالوا: اذا كثر الجواب خفي الصواب.

وبعد كل هذا نستعرض مثلين من واقعنا الثقافي لنعرف كيف شوهه الدخلاء، وكيف ادى هذا التشويه الى افكار بعيدة عن روح الثقافة الاسلامية الحقة.

بين الفداء والشفاعة

نظرية الفداء نظرية عميقة الجذور من الناحية الفلسفية، وهي تنطوي على شرك ظاهر، وقد دخلت في الديانة المسيحية عندما احتوت هذه الاخيرة على الفلسفة الاغريقية، ومزجتها بالدين في محاولة لتعزيز سلطان الدين ودعم مركزه في الاوساط الثقافية.

ونظرية الفداء هي في اصلها ناشئة من فكرة تعدد الالهة مصبوغة

بخيالات شاعرية، وهي تقول إِنَّ هناك عدة آلهة ينافس بعضهم بعضاً في ادارة الحياة، فقد يريد أحدهم الرحمة بعباده، بينما يمنعه الثاني، وهكذا ينزل احدهم ليصلح بين الناس فيأتي الثاني ويفسد ما اصلحه الاول. وحينما دخلت هذه النظرية في الديانة المسيحية تغيرت شيئاً ما، فكان الاب والابن وروح القدس هي الالهة الثلاثة المتنافسة على ادارة الكون، والاب بما يتمتع من نفوذ وعنف يمثل جناح اليسار المتعنت، بينما يمثل الابن جناح اليمين المعتدل، وبينهما روح القدس؛ لذلك يعتزم الاب تأديب عباده فيمنعه الابن، وهكذا يكون الابن فداء العباد والوسيلة المؤدية الى الرحمة بهم.

نظرية مرفوضة

هذه نظرية مرفوضة عند المسلمين كافة، ذلك لاننا نؤمن بآله واحد قوي مقتدر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. نحن نعتقد في الله سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^١. وهذه النظرية لا تمت بأية صلة بنظرية الشفاعة، ذلك لان الشفاعة انما هي دعوة مستجابة.

ولكن الله سبحانه رحيم بعباده، ورحمته وسعت كل شيء، ومن موجبات رحمته انه يقبل التوبة من عباده، ويستجيب دعاءهم، بل ويدعوهم الى نفسه فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^٢، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^٣، بل واكثر من ذلك انه يستجيب دعاء

١ - سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

٢ - سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

٣ - سورة غافر، الآية: ٦٠.



شخص لغيره، ويأمر بهذا الدعاء في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^١.
 فالله - اذاً - قريب ومجيب دعوة الداع في حدود المصالح الكونية العامة، ولأنه كذلك فقد يغفر ذنب شخص تكريماً لشخص آخر ورحمة به. فبسبب من دعاء الولد لوالده وتكريماً لمكانة الولد، وجزاء له على اعماله الصالحة، قد يغفر الله للوالد ويمسح على ذنوبه يد التوبة الشاملة، وقد يغفر للصديق بدعاء صديقه الذي له مكانة عند ربه، وهذه هي الشفاعة.

احتمالات الاجابة

وكلما سمت مكانة الداعي، كلما زادت احتمالات الاستجابة للاغاثة، ولكن دون ان تصل هذه الاحتمالات الى ١٠٠٪ لان الله سبحانه اكبر من ان ييرمه إلحاح الملحين، وتجبره دعوة عبد من عبده مهما كان تقياً.
 ان لله تعالى الكلمة الحاسمة في تقدير العباد وفي استجابة الدعاء لله وليس لاحد حتى ولو كان نبياً أن يحتم عليه شيئاً، إنما له الدعاء والمسألة، إنه يسأل ولله أن يستجيب له أو لا يستجيب. يقول الله لرسوله:

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^٢، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^٣.
 إذاً تتلخص نظرية الشفاعة الاسلامية، في ثلاث نقاط:

١. الله واحد احد عزيز جبار.

١- سورة الاسراء، الآية: ٢٤.

٢- سورة التوبة، الآية: ٨٠.

٣- سورة المنافقون، الآية: ٦.

٢. الله واسع الرحمة، ومن رحمته استجابة دعاء عباده لانفسهم او لبعضهم البعض.
٣. وهو لا يُجبر على استجابة دعاء أحدٍ لأحد، مهما كانت درجة الداعي وشأنه عند الله.
- وأيّن هذه الحقيقة من نظرية الفداء الوثنية؟ أين هي من جبر الإله الصغير للإله الكبير على الرحمة بعباده؟ الفرق بينهما هو الفرق بين التوحيد الخالص والشرك البعيد.

فكرة الشفاعة

والآن لنستمع الى بعض هؤلاء الدخلاء كيف يصور لنا فكرة الشفاعة حتى يتخيّل الينا أنها نسخة مطابقة لفكرة الفداء، يقول:

"والوسيلة [ويقصد بها الشفاعة] على هذا النحو جاءت الى الجماعة الاسلامية عن طريق مدرسة الافلاطونية الحديثة فقد حددت هذه المدرسة العالم الرفيع في الوجود بثلاثة موجودات، وهي الاول والعقل والنفس الكلية".^١

ولكن هل يمكننا أن نؤمن بأنّ فكرة الشفاعة (او الوسيلة) دخلت الامة من ناحية الفلسفة؟ بصراحة كلا، لأنّ الشفاعة مذكورة في القرآن الكريم ذاته، حين يقول الله تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^٢

﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^٣.

﴿لَا تَعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^٤.

١- الفكر الاسلامي في تطور، ص ٨٣.

٢- سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

٣- سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

٤- سورة النجم، الآية: ٢٦.

وهل يمكن ان تكون ثقافة القرآن من موحيات الافلاطونية الحديثة، وقد كانت مفهومة في عصر ما قبل الترجمة حيث كان الكتاب والسنة المصدرين للفكر الاسلامي؟

ان نظرة الاسلام الى دور الشخص الثاني في خلاص الانسان من مغبة عمله نظرة ايجابية وعقلية، فهي في الوقت الذي لا تنكر هذا الدور مرة واحدة لا تراه ايضاً دوراً حاسماً وحتمياً، وبذلك تجعل الانسان بين اليأس والرجاء، وهو المحور الذي ينشط الفرد، لانه آئذ يهدف تقليل احتمالات اليأس ومضاعفة اسباب الرجاء، بينما نظرية الفداء التي تبنتها المسيحية اليوم، تبعد الفرد عن المسؤولية، وتجعله يتكل على المفتدي عيسى عليه السلام ويخلص نفسه عن تبعة سيئاته.

وهكذا تكون النظرة الاسلامية هي الاوفق للحضارة والاقدر على بناء الشخصية المتكاملة.

والمثل الثاني، للتشويه المتعمد الذي يدسه المستشرقون في ثقافتنا، هو التشبيه بين استشهاد الامام الحسين عليه السلام وبين نظرية الصليب عند المسيحيين، وربط الشعائر الحسينية بطقوس الكنيسة؛ بينما الفرق كبير بين هذه وتلك، نابع من الفرق بين التوحيد النقي الذي يتمتع به الفكر الاسلامي، والشرك الخفي الذي ينطوي عليه الفكر المسيحي، ذلك لان المسيحية تعتقد بأن عيسى عليه السلام اشترى اللعنة الابدية بالصليب الذي اعدم به، ولذلك فان المسيحي تخلص من اللعنة والى الابد بذلك الصليب، بينما لا يعتقد المسلمون في الامام الحسين عليه السلام الا انه شهيد ضحى من أجل الدين، والذين قتلوه هم ملعونون، وانما يجب علينا تجديد ذكره بالشعائر المعينة، لكي نعلن للناس عن حبنا لله، ولمن

يُقتل في سبيل الله، فالحسين عندنا غير ملعون كما هو المسيح عند النصارى، وهو بالتالي لم يشتر اللعنة الابدية بقتله ولم ينقذ الناس من عاقبة اعمالهم باستشهاده بتلك النوعية التي يزعم النصارى ان عيسى عليه السلام قام بها، وهنا ايضاً يكمن الفرق بين الفكرة الاسلامية التي تدعو الناس الى العمل والفكرة المسيحية التي تخلص الناس من مسؤولية العمل.

الفصل الثامن

نهاية الثقافة عند أزمة التطور

والمرحلة الرابعة للثقافة^١ هي النهاية، حيث تخرج الثقافة من مسرح الحياة نهائياً وتبدأ الامة بحثها عن البديل. وهنا تنتهي أزمة التطور هذه التي تعصف اليوم بالبلاد الاسلامية، ولهذه الازمة جذور عميقة يجب البحث عنها حتى نعالجها معالجة تامة، واهم جذورها فقدان المقياس الذي يميز الصحيح من السقيم ويوصي بنبد السقيم؛ هناك يتأرجح الشخص بين اقصى اليسار واقصى اليمين ويبدأ الاختلاف العريض. فالبعض يقول انه لا بد من الثورة الجذرية الشاملة، ويريد منا التحول فجأة بعملية مسرحية تشبه عملية تحول الحطب الى رماد. وفريق يقول بل الحطب خير من الرماد وبين الحطب والرماد نبقى خيارى مفتقرين الى المنضدة التي تأتي بإصلاح الحطب، لا بإحراقه ولا بإبقائه على حالته.

التطور مسيرة لا توقف

فالتطور إذن مسيرة لا تتوقف. فهل يستطيع أحد أن يسمر الفلك لكي لا يدور بالحياة؟ هل بقدرة أحد أن يأمر الشمس بأن تقف، ولا

١ - تم الحديث في الفصلين السابقين عن مراحل ثلاث من المراحل الأربع للثقافة، وهي: الشباب، والشيخوخة، والمرض، وتم الحديث عن الأخير بشيء من الإسهاب. بقي الحديث عن المرحلة الرابعة وهي: النهاية والموت، وهو ما يتم بحثه في هذا الفصل.



تعطي البذرة الراقدة في ضمير الارض النور والدفء، وتحولها الى حقل زاهر؟ كذلك هل بإمكاننا ان نقول للاجيال القادمة قفوا ولا تكبروا ولا تتمنوا لأنفسكم حقوق الحياة الاولى، أم نمنعهم عن اكتشاف وسائل جديدة للعيش أفضل من وسائل آبائهم، كما وجد آبائهم ما هو أفضل من ذي قبل؟ ان هذه جميعاً سنة الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

والدين الاسلامي يبعث الانسان نحو التطور ومواكبة سنة الله في الارض، ويبارك في التغيير الصالح في كل شيء، ولكننا مع ذلك ترانا نعادي التطور. فلماذا؟

الحقيقة ليس ذلك لاننا لا نحب ان نرى بلادنا مزدهرة ينعم في ظل نعيمها ابناؤنا القادمون، ولا لاننا لم نعرف أنَّ الشمس تجري ولن توقفها ارادة بشر امثالنا وأنَّ التطور سُنَّة لا تتبدل، لا لهذا ولا لذلك يمنع التطور، انما لواحد من عاملين:

اولهما: الهيبة؛ فنحن لا نعلم ماذا وراء الأكمة، فنحذر منها ونتقي من تسلقها.

حتى اليوم تعودنا على ركوب الدواب ولكن نخشى لو استبدلت الدواب بالقطار أن يحدث امر مكروه، فنفضل القديم بالرغم من روعة الجديد.

وثانيهما: إنَّ قوى كثيرة في بلادنا تعيش اليوم على نمط الحياة القديمة، وتخشى لو تطور هذا النمط أن تتأثر مصالحها به. وصحيح ما تخشاه، إذ أن التطور سوف يقضي على مصالح فريق من الناس، ولكن بشرط واحد هو جمود هذا الفريق على القديم، أما إذا تطور هو أيضاً مع موكب الحياة، فإنَّ التطور لا يؤثر عليه سلباً.

فعمال النسيج في أوروبا تأثرت مصالحهم حين اكتشف المحرك

البخاري، ولكن بمجرد ان تطورا زادت اجورهم أضعافاً.
والنظرة السطحية فقط هي التي تجعلنا نزع من التطور يضرب بنا، كلا
انما ينفعنا بشرط ان نعرف طريقة استثماره.

الانطلاق من قيد التقليد

ولكن كيف يمكن التطور؟ انما يمكن ذلك بعد الايمان بأن
تصحيحاً ما لا يد ان يجري في الانسان نفسه باعتباره العامل المسؤول
عن التغيير، ولكن هل يتسنى للنفس ان تصبح مغيرة واقعا دون ان تفقه
ضرورة التغيير الذي يستوجب الابداع ايضاً، إذ ما من فاسد يزال إلا وهو
بحاجة الى صالح يخلفه؟

ومشكلة النفس أنها لا ترتفع الى مستوى الابداع، لأنها لم ترتفع
الى مستوى التغيير الحقيقي. وتنعكس هذه المشكلة على واقع
الامة الاسلامية حيث لم تستطع أن تبدع حتى على ابسط صعيد.
فأمهاتنا اللاتي كن يشكين من تعب الظهر كلما كنَّ يكنسن الغرف بـ
(المكانس) اليدوية لم يستطعن ان يبدعن فكرة ايصال مقبض طويل
الى (المكنسة) حتى يقمن بالكنس وهنَّ قائمات، بل انتظرن قروناً
طويلة حتى جاء الغرب ليعلمهن ذلك.

وكذلك في كافة شؤوننا الحيوية الملحة، لم نرتفع الى مستوى الابداع
نفسياً بالرغم من أننا كنا ذوي كفاءة عقلية كاملة.

والانسان الذي يركن الى ظل التقليد من المستصعب عليه ان يقلع
عنه، وحتى لو استهدف تطويراً في حياته فإنه يروح يبحث عن يقلده
في هذا التطوير.

التقليد في التطوير

وابسط مثل لهذه الظاهرة الاصيلية في الانسان المقلد وهي ظاهرة "التقليد في التطوير"، نجد أبسط الامثلة لها في حياتنا الراهنة، حيث صممنا على التطور ولكن التطور على قياس المقلدين لا على قياس المغيرين، فتورطنا في متناقضات عديدة:

اولها: إنَّ الغرب أبدع عدة مناهج، ثم اصطلح أخيراً على التمسك ببعضها، كالمنهج الديمقراطي والمنهج الاشتراكي، وكانت ظروف كثيرة قد اوجبت هذا الاختيار، فجاء فريق من المسلمين وانبهروا بهذه المناهج المختارة دون ان تكون لديهم ذات الظروف التي كانت في الغرب.

فمثلاً: في الغرب كانت الاحزاب قوية، والوعي الوطني شاملاً، ونسبة الامية منخفضة، ووسائل الاعلام متوافرة بحيث سمحت للنظام الديمقراطي بالسيادة دون إحداث فوضى في البلاد، غير أنَّ ذات الامكانيات في بلادنا لم تكن متوفرة، لهذا رأينا كيف فشلت النظم الديمقراطية المقلدة في بلادنا كما يسقط الحائط الذي لا أساس له.

وايضاً في الغرب حدثت أزمات متضاربة لأسباب تاريخية، فانتقلت بسبب (ظاهرة التقليد في التطور) الى بلادنا عنوة وزوراً.

فمثلاً: الازمة بين العمل والرأسمالية التي أدت الى انواع متطرفة من الاشتراكية، هذه الازمة كانت نتيجة طبيعية لمجموعة عوامل أبرزها التضخم الرأسمالي في الغرب مما سبب مظالم كثيرة للعمال انفجرت في الثورات العمالية وأدت الى قيام أحزاب اشتراكية متطرفة.

ولكن هل كان في الشرق الاسلامي رأسمال ضخم؟ ام هل فيه عدد ضخم من العمال؟ ثم هل هناك من مظالم تلحقهم؟ هذه الاسئلة لم يفكر فيها اولئك الذين قلدوا الغرب في هذه المناهج، لان (ظاهرة

التقليد في التطور) لم تدع لهم مجالاً للتفكير.

الأزمة بين الدين والعلم

وهناك الازمة بين الدين والعلم، وبين رجال الكهنوت والمثقفين، تطورت هذه الازمة في اوروبا بفعل الطلاق الدائم الذي كان بينهما هناك، مما حدا برجال الدين الى الوقوف بصلافة ضد العلماء، وحدا بالعلماء الى تبني مذاهب متطرفة تجاه الدين، هذه الازمة انعكست ايضاً على دماغ المقلدين - عندنا - فحاولوا تفجيرها في مذاهب مادية. ولكن هل كانت لدينا ازمة تسمى بأزمة العلم والدين؟ كلا، ان الاسلام لم يقف في أي يوم ضد العلم ولا وقف العلماء عندنا ضد الاسلام، فلم يكن لدينا ما يبرر هذه الازمة المفتعلة.

وفي الغرب أيضا كانت هناك حاجات ألحت على الانسان المبدع فابتكر عدة وسائل لاشباعها، ولكن عندنا لم تكن تلك الحاجات موجودة، انما حاولنا تقليد الغرب في اشباعها فأصابتنا التخمة. فما هي الحاجات وما هي وسائل اشباعها؟

الحاجة الى السرعة وتقدير الوقت عبرت عن نفسها باختراع وسائل السير السريعة.

وتطوير اختراع الساعة، ونحن استخدمنا الوسائل، ولكن ليس لاشباع حاجة اليها. شددنا الساعة على ايدينا ونظرنا إليها بين لحظة واخرى لكن دون ان نحاول ضبط المواعيد بها، وربما كنا أكثر اهتماماً بها قبل اختراع الساعة حين كنا نتمسك بقول الرسول ﷺ حيث يصف المؤمن بأنه «إِذَا وَعَدَ وَفَى»^١.

واستقلينا السيارات وامتطينا أسرع الطائرات، ولكن حينما وصلنا الى غايتنا لم نقدّر الوقت، بل اهدرناه في المسليات، وارتخينا وراء مكاتب عملنا ننتظر نهاية الدوام.

إنّ وسائل العيش مرتبطة بأهداف الانسان، وأزمة البلاد النامية، أنها تستخدم الوسائل لغير اهداف محددة، وهي ازمة التطور على شاكلة المقلدين.

إنّ هذه بعض النظرات الخاطفة التي تلقي ضوءاً كاشفاً على بعض مشاكلنا الثقافية .

الثقافة النافعة هي التي تتسجم بنسبة معقولة مع شخصية الإنسان، وقد اوتي كل فرد قدرة التمييز، ولكن حين يواجه حشداً هائلاً من الافكار يكون حاله كمن يكلف بشراء سيارة تناسبه في جملة السيارات التي يراها في شارع مزدحم، إنه تكليف لا يطيقه، ومن هنا ترى الناس بين من لا يختار فكرة (ويصبح أمياً من الناحية العملية) أو يختار بلا هدى من عقله ومن واقع شخصيته المتميزة (فيصبح ذا شخصية متناقضة داخلياً).

ونعاني - نحن المسلمين - اكثر من غيرنا من المشكلة الثقافية، لاننا ننتمي الى حضارة اصيلة، ونتميز في قيمنا وتأريخنا واهدافنا ومصالحنا عمن يملك ناصية الثقافة العالمية، وهم المسيطرون على التقنية (امريكا واوروبا بالذات) فلا نستطيع الانغلاق دونها ولا يصلح لنا الاسترسال معها، والطريق السوي هو انتخاب النافع، ولكن ضمن اي معيار وكيف؟ وامواج الثقافة الغربية تغمرنا غمرة بعد غمرة.

نأمل أن يساهم هذا الجهد المتواضع في بلورة الرؤى الثقافية عند أوسع الجماهير، وبالذات عند المؤمنين المتمسكين بهدى الشريعة الغراء، والله ولي التوفيق.